
8
روايات مصرية للجيب
حرب الجواسيس
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com
جاسوس المحيط

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبدًا ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنهارًا .

ولكن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حربًا أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بها سوى أصحابها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

د. نبيل فاروق

العيد الكبير

(قصة واقعية)

العيد الكبير .. (قصة واقعية)

ارتسمت كل علامات الحنق والغضب والسخط ، على وجه الزعيم الروسى (جوزيف ستالين) ، مع حلول موعد الاحتفال السنوى التقليدى ، بعيد قيام الثورة البلشيفية ، وشفَّت كل حركاته وسكناته عن توتر عنيف ، كامن فى أعماقه ، ويلتهب مع كل نبضة من نبضاته ، حتى صارت الدماء التى تسرى فى عروقه ، أشبه بالحمم الملتهبة ..

وكان هذا أمرًا طبيعيًا ، فى ظل تلك الظروف القاسية ، التى كانت تحيط بالاتحاد السوفيتى ، فى تلك الفترة العصيبة من الزمان ..

النازيون شنوا حربًا مباغتة على الاتحاد السوفيتى ، على الرغم من المعاهدة الرسمية المبرمة بينهما ، وراحت الجيوش النازية تتدفق على الأراضى السوفيتية ، تنفيذًا لخطة (بارباروسا) ، أو ذى (اللحية الحمراء) ، التى وقَّعها الفوهلر (أدولف هتلر) بنفسه ..

وخلال عيدين كاملين ، من أعياد الثورة البلشيفية ، كانت الهزائم تتوالى على الجيش السوفيتى ، دون رحمة أو شفقة أو هوادة ، وعلى الرغم من عناد الزعيم السوفيتى ، وإصراره على إقامة الاحتفالات فى موعدها ـ فى المرة الأولى ـ إلا أنه

اضطر مرغمًا على إلغائها فى المرة الثانية ، مما أورثه ثورة أخرى فى أعماقه ، مصدرها العجز والهزيمة ، والإحساس بالخزى والغضب ..

وكان على القادة السوفيت ـ بتكليف من الزعيم ـ أن يفحصوا ويدرسوا أسباب الهزيمة ، فى محاولة لجلب النصر .. أى نصر ..

ولقد عكف القادة السوفيت بالفعل على دراسة الموقف كله ، بكافة دقائقه وتفاصيله ، قبل أن يستخلصوا بضعة نقاط أساسية ، على رأسها نقطة أثارت قلق الجميع إلى أقصى حد ..

الألمان يعرفون حتمًا الشفرة السرية ، التى يستخدمها السوفيت فى اتصالاتهم الخاصة جدًا .

ولأن الأمر بالغ الخطورة ، إلى أقصى حد ، فقد تردَّد القادة والمحللون طويلاً ، وراجعوا حساباتهم عشر مرات على الأقل ، قبل أن يجرؤ أحدهم على مصارحة الزعيم به ..

والواقع أنهم كانوا على حق تمامًا ، فى ترددهم وقلقهم هذا ، فلم يكد (ستالين) يعلم به ، حتى احتقن وجهه ، واشتعلت

عيناه ، وأفرغ كل غضبه وثورته فى وجوههم جميعًا ، قبل أن يستدعى ذراعه اليمنى ، واليد الباطشة له ، ووزير داخليته ، وقائد مخابراته (بيريا) ، ليلقى الأمر فى وجهه كالصفعة ..

ولم تكن صدمة (بيريا) بأقل من صدمة الزعيم ..

بل وربما كانت ضعفها ..

على الأقل ..

فطول عقود من الزمن ، كان (بيريا) ، الذى اشتهر باسم (السفاح) ، يزهو بأنه يحكم قبضته على الاتحاد السوفيتى كله ، ويزعم أنه ما من شخص ، مواطن أو أجنبى ، يمكن أن يلتقط نفسًا واحدًا ، دون أن يعلم هو بأمره ، ويسيطر حتى على أنفاسه ..

ووجود خائن وجاسوس ، فى مكانة رفيعة ، تتيح له الحصول على مفاتيح شفرة سرية خاصة كهذه ، يبدو أشبه بطعنة فى الصميم ، لكرامته ، وسمعته ، وشهرته الدموية الواسعة .

ولكن (بيريا) لم يغضب أو يثر ، كما فعل زعيمه ، وإنما شدّ قامته ، وأشار بيده للزعيم (ستالين) ، وهو يقول فى حزم صارم :

ـ امنحنى أسبوعًا واحدًا أيها الزعيم ، و ...

قاطعه (ستالين) ، مزمجرًا فى قسوة :

ـ ثلاثة أيام .

حدّق (بيريا) فى وجهه ، متمتمًا فى حذر :

ـ ماذا أيها الزعيم ؟!

زمجر (ستالين) مرة أخرى ، قبل أن يميل بوجهه العريض وحاجبيه الكثّين المنعقدين نحوه ، مكررًا بكل الغضب والقسوة والصرامة :

ـ ثلاثة أيام فقط يا (بيريا) .. إننا نفقد آلاف الشباب والمقاتلين ، كل يوم .

صمت (بيريا) لدقيقة كاملة ، وهو يتطلع إلى عينى (ستالين) المحمرتين المشتعلتين ، قبل أن يجيب :

ـ فى هذه الحالة يكفينا يومان فحسب يا زعيم .

قالها ، وغادر مكتب (ستالين) ، وقد قرر أن يشعل الدنيا كلها لو اقتضى الأمر ؛ ليحافظ على سمعته ..

وبعد أقل من ساعة ، كان يجتمع بكل زبانيته ، فى حجرة اجتماعات خاصة مؤمنة ، فى قبو المبنى الخاص به ، وهو يقول فى صرامة مخيفة ، بعد أن شرح ملخصًا للأمر :

ـ الزعيم منحنا ثلاثة أيام فحسب لكشف هذا الأمر ، ولكننى مصرّ على تحقيق النتائج الإيجابية خلال يومين فحسب .. أريدكم أن تضعوا قائمة بكل من يمكنه معرفة مفاتيح تلك الشفرة الخاصة ، دون أى اعتبار للمناصب والرتب ، وأريد تحريات كاملة عن كل شخص ، خلال يوم واحد ، ونتائج واضحة بعد هذا بثلاث ساعات فحسب .

تبادل الرجال نظرة قلقة متوترة مع تلك المهلة القصيرة جدًا ، ولكنه تابع بقسوة وصرامة أكثر :

ـ اتخذوا كل الإجراءات الممكنة .. اعتقلوا من تشتبهون فى أمره .. استجوبوا الكل .. افعلوا كل ما تشاءون .

ثم مال إلى الأمام ، وبدا أشبه بالشيطان ، وهو يضيف :

ـ المهم النتائج .. وبأقصى سرعة .

عاد الرجال يتبادلون النظرات الصامتة ، دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة ، على الرغم من القلق والتوتر العارمين على وجوههم ، و .....

ولكن فجأة ، انبرى الكولونيل (بورجنين) ، أحد كبار معاونى (بيريا) ، قائلاً فى حزم :

ـ هل يمكننى التحدث إليك وحدنا أيها الرفيق ؟!

انعقد حاجبا (بيريا) فى غضب عارم ، وكاد ينفجر فى وجه (بورجنين) ، ولولا أن أضاف هذا الأخير ، فى حزم أكبر :

ـ إنه أمر مهم للغاية .

فى المعتاد ، لم يكن (بيريا) ليحتمل مثل هذا الأمر ، مهما انطوى على فائدة للعمل ، إلا أنه ، فى هذه الظروف ، التى حاقت فيها الهزيمة ، واشتعل غضب الزعيم ، كان من الطبيعى أن يغمغم فى عصبية :

ـ فليكن .

واصطحب الكولونيل إلى حجرة جانبية ، لم يكد يغلق بابها خلفهما ، حتى قال (بورجنين) فى صوت خافت حازم :

ـ أعتقد أنه ليس من الحكمة أن نلجأ إلى أية أساليب واضحة أو عنيفة أو مباشرة ، فى هذا الأمر .

هتف (بيريا) فى غضب مستنكر :

ـ ليس من الحكمة ؟!

أسرع (بورجنين) ، يقول بلهجة رجل خبير محنك :

ـ يمكننا أن نحقق فائدة مزدوجة ، ترضى الزعيم وتبهجه ، لو أننا اتبعنا نهجًا آخر .

نجحت عبارته الأخيرة الذكية فى جذب انتباه (بيريا) ، الذى مال نحوه ، وهو يسأله فى مزيج من اللهفة والعصبية :

ـ أى نهج ؟!

مال (بورجنين) نحوه بدوره ، وابتسم ، مجيبًا بصوت أشبه بالهمس :

ـ الواقع أن لدى خطة :

كان من الواضح أن خطته قد راقت كثيرًا للسفاح (بيريا) ؛ فقد غادر معه الحجرة ، بعد ربع الساعة فحسب ، ليقول للمجتمعين فى صرامة :

ـ لا داعى للاستجوابات والاعتقالات ، سنحرص على أن يتم الأمر بأقصى قدر من السرية .

وعلى الرغم من الدهشة العارمة ، التى تفجرت فى كل ذرة من كيانهم ، إلا أن أحدهم لم ينبس ببنت شفة ، فى هذه المرة أيضًا ..

ولكن من المؤكد أن جميعهم قد قام بواجبه خير قيام ؛ وأن شبكة ضخمة من التحريات والنشاط ، قد شملت كل القادة وكبار الجنرالات ، الذين يمكنهم معرفة مفاتيح الشفرة الخاصة ..

والدليل المؤكد على هذا ، هو أنه ، وقبل مرور اليومين المتفق عليهما ، كانت أمام (بيريا) قائمة صغيرة للغاية ، تضمّ ثلاثة أسماء فحسب ، من بين أربعة وعشرين شخصًا ، كان يمكنهم التوصل إلى مفتاح الشفرة الخاصة ، التى أطلقوا عليها مجازًا اسم (المعبر) ..

وعلى الرغم من أن هذه ـ بالفعل ـ نتيجة ممتازة نظرًا لضيق الوقت ، إلا أن (بيريا) قد استقبلها بغضب شديد للغاية ..

غضب مزدوج ..

والواقع أن الجزء الأكبر من غضبه ، كان يعود إلى أن سرًّا حربيًّا خطيرًا كهذا يمكن أن يعلمه كل هذا العدد من الرجال ، والذى بدا له ضخمًا للغاية ..

ولقد كان محقًّا فى هذا تمامًا ..

كما أنه لم يكن يستطيع أن يعود إلى الزعيم ، بقائمة تضم ثلاثة أسماء ..

كان يحتاج إلى اسم واحد فقط ..

اسم يعنى الحسم ، والحزم ، والدقة ..

والنجاح ..

ولقد اجتمع (بيريا) برجله ، الكولونيل (بورجنين) ، وألقى إليه القائمة الصغيرة ، قائلاً فى حدة غاضبة :

- كيف يمكننى أن أواجه الزعيم بأمر كهذا ؟! كيف ؟!

التقط (بورجنين) القائمة الصغيرة ، وراح يطالعها مرة .. وثانية .. وثالثة ..

وفى هدوء حازم ، قال :

- يمكنك أن تواجهه بها ، مع خطة عبقرية تبهره .

هتف (بيريا) فى لهفة :

- كيف ؟!

مال (بورجنين) نحوه ، وتألقت عيناه على نحو خبيث ، وهو يقول :

- سأخبرك كيف أيها الرفيق .

واستمع إليه (بيريا) بكيانه كله ..

ولقد كانت خطته عبقرية بالفعل ، بدليل أنها قد نجحت فى إبهار الزعيم (ستالين) نفسه ، و(بيريا) يشرحها ، قائلاً :

- الجاسوس بين هؤلاء ، لن يكتفى بنقل مفاتيح الشفرة فحسب ، وإنما سيسارع حتمًا بإبلاغ النازيين ، عن أى أمر أو قرار خطير ، تتخذه القيادة السوفيتية ، وكل ما علينا أن نفعله ، هو أن نخبر كل منهم بأمر يختلف عن الآخرين ، باعتباره سرًا حربيًا خطيرًا ، وسنحدد لكل منهم موقعًا مختلفًا ، لمخزن سرى ندّعى وجوده ، وسنرى أى موقع ستقصفه الطائرات الألمانية فيما بعد .

ارتفع حاجبا (ستالين) الكثيف ، قبل أن يخفضهما ، ويبتسم ابتسامة باهتة كعادته ، قائلاً :

- عظيم يا (بيريا) .. عظيم .

ثم استعاد صرامته القاسية ، وهو يضيف فى غلظة :

- سنكشف أمر الخائن ، ثم نعدمه فى الميدان الأحمر ، على رءوس الأشهاد .

تنحنح (بيريا) ، مغمغمًا :

- معذرة أيها الرفيق الزعيم ، ولكن خادمك (بيريا) يرى أنه من الأربح أن نبقى عليه .

انتفض جسد (ستالين) كله فى عنف ، وهو يصرخ فى غضب مستنكر :

- نبقى على خائن يا (بيريا) ؟!

أسرع (بيريا) يقول :

ـ من أجل الوطن أيها الزعيم .

ثم استطرد فى سرعة ، قبل أن تعلو الدهشة المستهجنة وجه الزعيم :

ـ لو أننا كشفنا أمره ، دون أن يدرك هذا ، ودون أن يدرك النازيون أننا قد كشفنا أمر معرفتهم لشفرتنا السرية الخاصة ، فسيمكننا أن نعزله ، ونقوم بتغيير الشفرة السرية ، مع مواصلتنا استخدام الشفرة القديمة ، لنبث بوساطتها كل ما نريد أن نبلغه للجيش النازى .

وتألقت عيناه ، مع ابتسامته الذئبية ، وهو يضيف :

ـ وكل ما يفيدنا نحن .

كانت هذه خطة (بورجنين) ، إلا أن (بيريا) لم يشر قط إلى هذا ، وخاصة بعدما لمح الانبهار والإعجاب فى عينى الزعيم ، الذى ربت على كتفه ، هاتفًا فى صوت فخم ضخم مبتهج :

ـ عظيم يا (بيريا) .. عظيم حقًّا !

ثم أضاف فى حدة :

ـ ولكننا سنعدمه فور انتهاء الحرب .

وافقه (بيريا) بإيماءة من رأسه ، وهو يقول فى جزل عجيب ، وكأنما أثلج قلبه ذكر الإعدام :

ـ فور انتصارنا أيها الزعيم .

وفور خروجه من مكتب الزعيم ، بدأ (بيريا) فى تنفيذ خطته على الفور ..

ومع الجزء الأول من الخطة ، تم حصر الاتهام فى شخص واحد ..

الجنرال (كواليسكى) ..

وهنا تم تنفيذ الشطر الثانى من خطة (بورجنين) ، بعد أن أضاف إليها (بيريا) خطوة ، بدت له شديدة الأهمية والخطورة ..

التخلص من (بورجنين) نفسه ..

ولقد تم هذا بحادثة سير بسيطة فى قلب الميدان الأحمر نفسه ، والمدهش أن (بيريا) قد أشرف شخصيًا على إعدام الجندى الذى نفذ الحادثة ؛ باعتبار أنه قد حرم البلاد من بطل عسكرى ، فى زمن الحرب ..

وهكذا أصبح (بيريا) هو صاحب العبقرية ، التى سمحت للقيادة السوفيتية بخداع القيادة النازية ، طوال ما يقرب من عام كامل ، انقلبت فيه الآية ، وراحت الجيوش الألمانية تتذوق ـ ولأول مرة ـ طعم الهزائم المرة ، التى طالما أذاقتها للآخرين ..

وللسوفيت بصورة خاصة ..

ولقد كشف جهاز المخابرات الألمانى الأمر بالفعل ، وأدرك أن السوفيت يخدعونه منذ زمن طويل ..

ولكن بعد فوات الأوان ..

فالقوات السوفيتية كانت قد استعادت كل ما احتلته الجيوش

النازية من أرضها ، وراحت تزحف خلفها ، عبر (آسيا) ، و(أوروبا) ، حتى بلغت (برلين) نفسها ..

واندحرت ألمانيا النازية ، على نحو لم يتصوره أو يتخيله أحد ..

وانهارت إمبراطورية الرايخ الثالث ، قبل أن تثبت أقدامها على عرش العالم ، وانتحر قادتها ، وعلى رأسهم الفوهلر نفسه ..

وعندما ارتفعت رايات النصر ، ووقف (ستالين) يستقبل حماس وفرحة شعبه ، كان رأسه يعد قرارًا جديدًا قويًا ..

قرار بإقامة احتفالات ضخمة بعيد قيام الثورة البلشيفية القادمة ..

ولقد كان ..

وفى احتفال لم تشهد (موسكو) كلها مثله ، احتفل السوفيت بأول أعياد الثورة البلشيفية ، بعد الانتصار الكبير ، فى الحرب العالمية الثانية ..

ولقد أطلقوا على عيدهم المتميز هذا اسمًا خاصًا جدًا ..

عيد الثورة والنصر ..

العيد الكبير ..

جدًا ..

مذكرات رجل مخابرات

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصورً أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرَّد كلمات ..

مجردً مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

٨ - السـقوط ..

من المؤكَّد أن العمل فى أى جهاز مخابرات ، لا يمكن أن يصيب صاحبه بالملل أبدًا ، فكل يوم لا بد وأن يحمل لك خبرةً جديدةً ، أو مفاجأةً مثيرةً ، أو درسًا يفيدك كثيرًا أن تتعلمه ..

وعندما أوقعنا بذلك الجاسوس ، وأحكمنا قبضتنا حوله ، كنت أبدأ مرحلة جديدة من عملى ، تختلف تمامًا عن كل المراحل السابقة ..

مرحلة التعامل المباشر ، مع جاسوس مزدوج ..

فى البداية ، قمنا بنقله إلى مكان خاص مؤمَّن ، خارج المبنى الرئيسى لنا ، وهناك ووفقًا لما تعلمته ، على يد عريض المنكبين ووجه القنفذ ، طلبت منه أن يكتب اعترافًا كاملاً بما حدث ..

ولقد أطاع الرجل أوامرى دون مناقشة ، وكتب الاعتراف بأصابع مرتجفة ، وهو يتوقَّف فى كل لحظة ، ليسألنا عما إذا كان من الضرورى أن يضيف التفاصيل الصغيرة والدقيقة ، وكنا نؤكِّد له فى كل مرة ، وبصبر وهدوء شديدين ، حتمية أن يفعل هذا ..

وخلال ساعة كاملة تقريبًا ، كتب الرجل اعترافه التفصيلى ، فى ثمان صفحات كبيرة ..

وعندما قدَّم إلىَّ اعترافه ، سألنى بلهجة أقرب إلى الضراعة عما إذا كنت صادقًا ، فى العرض الذى قدَّمته له ، فأكدت له هذا ، ثم راجعت اعترافه ، وادعيت أن خطه غير مقروء بسبب اضطرابه وتوتره ، وطلبت منه أن يعيد كتابته بنفس التفاصيل مرة ثانية ..

كان الغرض من هذا ، كما درست جيِّدًا ، هو أن يضيف الجاسوس أيةَ تفاصيل جديدة ، ربما تكون قد أفلتت من ذهنه ، وهو يدوِّن اعترافه الأوَّل ، الذى وضعه تحت تأثير انفعالاته الجارفة ..

ولقد استغرقت كتابة الاعتراف للمرة الثانية أربع وأربعين دقيقة فحسب ، وكان يحوى بالفعل بعض التفاصيل الصغيرة ، التى لم تظهر فى المرة الأولى .. وهنا ، طلبت منه كتابة اعترافه للمرة الثالثة ..

وعلى الرغم من حيرته ، عاد الرجل يكتب الاعتراف ، ويضيف إليه معلومة صغيرة هنا ، أو موقف عابر هنا ، أو عبارة لم يتذكرها فى المرة الأولى أو الثانية ..

وهكذا ..

وبعد انتهائه من كتابة اعترافه التفصيلى للمرة الثالثة ، فى ثلاث وثلاثين دقيقة ، تناولته منه ، وناولته لأحد أفراد الفريق ، الذى أسرع به إلى قسم خاص ، يتولَّى مراجعة التفاصيل ، وتحديد مدى صدقها ، ومدى تورُّط الرجل ، فى العمل لحساب جهاز المخابرات المعادى ..

أما أنا ، فقد بدأت مع وكيل النيابة عملية الاستجواب ..

وأمام عدسات الفيديو ، راح الرجل يدلى شفاهة باعتراف تفصيلى جديد ، يحوى كل شىء بلا استثناء ..

تحدَّث عن أسلوب الإيقاع به هناك ، فى الدولة التى يعمل لحسابها ، ودفعه قهرًا إلى العمل ضد دولته الأم ..

والواقع أن الأسلوب الذى اتبعوه كان يستحق التقييم والدراسة بالفعل ، ولقد ساعدتهم عليه كثيرًا نظمهم المغلقة ، وقوانينهم الصارمة الجافة ..

ولقد بدأ الأمر منذ ما يزيد قليلاً على الأعوام العشرين ، أيام أن كان الرجل معيدًا صغيرًا ، فى واحدة من الكليات العملية ، ما زال متفتحًا للحياة ، ويحلم بالحصول على شهادة الدكتوراه التى ستؤهله للتفوق فى عمله ، والصعود إلى أعلى المراتب ..

ولأنه أحد القليلين فى تخصصه ، فقد حصل على منحة خاصة ، للحصول على رسالة الدكتوراه من إحدى الدول الباردة ، ذات المكانة المتميِّزة ، على الخريطة العالمية ..

وسافر المعيد الشاب إلى تلك الدولة ، وكله شغف إلى بدء دراسته مستعينًا بإمكانياتها المتقدِّمة ، ومعاملها الضخمة الشهيرة ...

ولأنه ينتمى إلى بعثة رسمية تتبع الدولة ، كانت مخصصاته المالية محدودة ، تكفى بالكاد لحياة هادئة بسيطة ، وفقًا لأسعار الصرف الرسميةَ هناك ..

ثم ظهر فجأة ذلك الشخص ، الذى يتواجد حتمًا ، فى كل عملية من عمليات الجاسوسية والمخابرات ..

الشخص الأنيق ، الوسيم ، الظريف ، الودود ، الذى يجيد عقد الصداقات والارتباطات ، والذى يظهر دومًا فور الحاجة إليه ، كما لو أنه جنى مصباح (علاء الدين) الشهير ..

وعندما ظهر ذلك الشخص ، ارتبط ظهوره لدى المعيد الشاب بانتعاش مالى مباغت ، إذ أقنعه بعقم استبدال ما يتم إرساله إليه عبر الوسائل الرسمية ، فى الوقت الذى يبلغ فيه سعر السوق ثلاثة أضعاف هذا الرقم على الأقل ..

وعندما أبدى المعيد الشاب تَخوّفه ، من عنف العقوبة ، المفروضة على كل من يتجاوز النظم الاقتصادية الرسمية ؛ لجأ ذلك الشخص إلى طمئنته ، وأكَّد له أنه سيتولى الأمر بنفسه ، وسيجنبه كل المخاطر الممكنة ..

وبمنتهى القلق والتوتر ، جازف المعيد الشاب بإعطاء ذلك الشخص نصف ما وصله من دولته ، وراح يرتجف فى منزله ، متسائلاً عما يمكن أن يحدث ، لو سقط ذلك الشخص فى قبضة الشرطة ، وهل سيشى به أم لا ، وحاول أن يهدئ نفسه بأنه لا يوجد أى دليل على أنها نقوده ، وأنه يستطيع الإنكار بكل الإصرار ، و ....

ولكن ذلك الشخص عاد بسرعة ، وهو يحمل النقود المحلية ..

ثلاثة أضعاف التحويلات الرسمية بالفعل ..

وكان من الطبيعى أن يسعد المعيد الشاب جدًا ، بعد أن تضاعف دخله الشهرى ثلاث مرات دفعة واحدة ، مما ساعده على أن يحيا برفاهية أكثر ، وأن يبتاع العديد من البضائع الرخيصة المدعومة ، التى ستوفر له الكثير ، عندما تحين لحظة الارتباط والزواج ..

واستمر الموقف ، وتكرَّر فى كل شهر ..

واعتاد الشاب هذه الحياة المترفة ..

ثم فجأة ، اختفى ذلك الشخص !

اختفى تمامًا ، مع بداية شهر جديد ، ولم يستطع الشاب العثور عليه أبدًا .. ومضت بضعة أيام من الشهر ، والشاب يواصل البحث عن ذلك الشخص ، وتوتره يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

وعندما بلغ توتره مبلغه ، ولم يعد أمامه سوى الاستسلام ، وتغيير ما لديه بالأسعار الرسمية ، تلقى اتصالاً مفاجئًا من ذلك الشخص ..

وبكل لهفة الدنيا ، سأله عن غيابه ، وعن سر اختفائه ، وأحبط تمامًا بعد أن أبلغه ذلك الشخص أنه فى بلدة بعيدة ، فى عمل مهم جدًا ، وأنه لن يستطيع العودة ، قبل منتصف الشهر التالى ..

ثم طلب منه ذلك الشخص أن يقوم بعملية الاستبدال بنفسه ، وطمأنه بأن هذا سيتم عند ناصية بنايته ، وفى دقيقة واحدة ،

ودون أن يشعر أحد ؛ فكل ما عليه هو أن يذهب إلى الناصية ، فى السادسة مساءً بالضبط ، وسيجد الرجل فى انتظاره ؛ ليسلمه حقيبة تحوى النقود المحلية ، ويتسلَّم منه نقود البعثة ، ثم ينصرف كلاهما إلى حال سبيله ..

وعلى الرغم من قلق الشاب وتحفظه ، إلا أنه قرَّر المجازفة بإتمام التبادل شخصيًا ؛ حتى لا يخسر الفارق الكبير لسعر الصرف ..

وفى السادسة تمامًا ، هبط المعيد الشاب إلى ناصية بنايته ، وكان ذلك الرجل فى انتظاره ، وهو يحمل حقيبة النقد المحلى ..

كل شىء سار تمامًا ، كما أخبره به ذلك الشخص ..

لولا فارق واحد ..

لقد ألقت الشرطة القبض عليهما معًا ، متلبسين بمخالفة القوانين الاقتصادية الصارمة !

وانهار المعيد الشاب ..

انهار تمامًا ..

وبمنتهى القسوة والخشونة ، عامله رجال الشرطة المحليين ، وهم يستجوبونه طوال يومين كاملين ، على نحو متصل ، دون أن يسمحوا له بإغماض عينيه لحظة واحدة ، وهم يواصلون الصراخ فى وجهه دون انقطاع ، بمنتهى الوحشية والشراسة ..

وبعد أن نفدت طاقته تمامًا ، تم إلقائه ، مع عشرة آخرين ، فى زنزانة ضيقة حقيرة ، لاتليق بحيوان أجرب ، وطلبوا من الجميع التطلُّع إلى نافذة بابها طوال الوقت ، مع تحذير قاس ، بأن من يحوِّل عينيه عن تلك النافذة الصغيرة ، ولو لحظة واحدة ، فى الليل أو النهار ، سينقض عليه الحراس ، وينتزعونه من مكانه ، وينهالون عليه ضربًا ، حتى يفقد الوعى ..

وخلال ساعته الأولى ، فى تلك الزنزانة الرهيبة ، أثبت الرجال أنهم لم يبالغوا لحظة فيما قالوه ، بعد أن انتزعوا رجلين بالفعل ، وأوسعوهما ضربًا ، حتى تحطم صدر أحدهما ، ونزف الآخر من كل فتحات جسده فى غزارة ..

وبعد يومين آخرين ، فى تلك الظروف الرهيبة ، كان الشاب مستعدًا للتعاون مع الشيطان نفسه ، لو أنه عرض عليه إخراجه من هذا الجحيم ..

لذا كان من السهل جدًا أن يقبل عرض جهاز المخابرات ، فى الدولة نفسها ، خاصة وأنهم أكدوا له أنهم لايبتغون أية معلومات عن وطنه الأم ، بل عن الأجانب المقيمين فيه فحسب ..

وفور موافقته ، سلمه رجال المخابرات هناك رزمة من النقد المحلى ، ثم طلبوا منه توقيع إيصال بالاستلام ..

ودون أن يفكر لحظة واحدة ، وقع المعيد الشاب الإيصال ، الذى يثبت أنه قد تقاضى ذلك المبلغ ، من مخابرات دولة أجنبية ..

وهكذا سقط فى قبضتهم تمامًا ..

وفى عالم المخابرات ، يقال : إنه قد أصبح ملكًا لهم ..

وعندما عاد إلى موطنه ، بعد نهاية بعثته ، كان يرتجف ذعرًا ، خشية أن ينكشف أمره ، ويضيع مستقبله كله ..

ولكن أحدًا لم يستوقفه ، أو حتى ينتبه إليه ..

بل ولم يطالبه جهاز المخابرات الأجنبية بأية معلومات ، عن أية جهة ، وحتى عن الأجانب المقيمين ..

ومرّت سنوات .. وسنوات .. وسنوات ..

ومع مرورها ، نسى هو الأمر تمامًا ، أو أنه قد ألقاه فى جزء مهمل من ذاكرته ، وراح يمارس حياته الطبيعية ، ويترقَّى فى مجال عمله ، حتى بلغت شهرته حدًا كبيرًا ، أقنع المسئولين بتعيينه فى منصب كبير وحسَّاس ، و....

وهنا فقط ، ظهر جهاز المخابرات الأجنبى ..

ظهر حاملاً عشرات الصور ، والتسجيلات ، والإيصال الذى يثبت تورّطه فى العمل معهم ..

* * *

وعندئذ فقط ، ظهرت مطالبهم ، وحاجتهم إلى المعلومات ، عن الأجانب المقيمين ، وعن أبناء وطنه أيضًا ..

ولأن سقوطه من هذا الموقع الحساس سيكون مدويًا ، لم يجد أمامه سوى الاستسلام ..

والخيانة ..

ولكن حتى هذا لم يمنعه من السقوط ..

وبمنتهى العنف ، و .....

« المستوى الثالث .. »

نطقها أحد أفراد الفريق ، وهو يناولنى تقرير القسم الخاص ، عن الاعتراف التفصيلى للرجل ، فالتقطته من يده ، وطالعته بمنتهى الاهتمام ، قبل أن أرفع عينىَّ إلى ذلك الجاسوس ، قائلاً فى صرامة :

ـ لماذا لم تذكر فى اعترافك أنهم قد استدعوك لدورتين تدريبيتين خارج الوطن ؟!

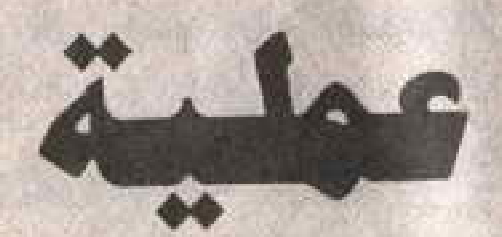
واتسعت عينا الرجل ، وسقط فكه السفلى فى ذهول تام ..

فما أخفاه عنا ، وما أخبرته به ، كان حقيقيًا ..

تمامًا .

* * *

تابع فى الكتب القادمة



إنقاذ

(من قصص الصراع المصرى الإسرائيلى)

عملية إنقاذ .. (من قصص الصراع المصرى الإسرائيلى)

اندلعت حرب السادس من أكتوبر ١٩٧٣م بغتة ، على نحو لم يتوقَّعه أو يتخيَّله العدو الإسرائيلى قط ، بفضل خطة استراتيجية متقنـة ، تضـافرت من أجلها جهود العديد من أجهزة الدولة ، وعلى رأسها جهاز المخابرات العامة ، الذى نفذ العشرات من العمليات المدهشة ، التى شاركت فيها عقول خبرائه ، وبطولات رجاله ، وبسالات عملائـه ، الذين لم يتركوا ثغرة واحـدة ، أو احتمـالاً ولـو ضئيلاً ، يمكن أن ينفذ منـه الخصم ، لإدراك أن (مصر) لـم ولـن تستسـلم للهزيمـة والاحتلال ، وأنها ستهبّ حتمًا لاستعادة حقهـا ، ونيل ثأرها ، وإن طال المدى ..

وفى غفلة من العدو وعيونـه ، هبّت مصر ، وانقضت كعاصفـة عاتيـة ، أو كإعصـار مباغت عنيف ؛ لتقتلـع خـط (بارليف) ، أقوى مانع عسكرى عرفـه التـاريخ ، وتسحق بلا رجعة أسطورة العدو الذى لا يُقهر ..

وانهزم العدو ، وانتصر جيشنا ، وراحت قواتنـا تتدفَّق على الضفة الشرقية لقنـاة (السويس) ، وأطلقت رمال (سيناء) زغرودة فرحة ، وهى تستقبل جنود أصحابها وأبناءها ..

وتوالت الانتصارات ، وأدرك العالم ـ لأول مرة ـ أن (مصر) دولة قوية صنديدة ، قادرة على المقاومة ، والقتال .. والنصر ..

ومع فرحة النصر ، وسحر العبور ، خرجت جموع الشعب المصرى إلى الشوارع ، إثر إعلان وقف إطلاق النار ، تهتف باسم قائدها ، وشجاعة وعبقريـة رجالـه ، وبسـالة جنوده وأبنائه .. و .....

وفجأة ، انطلقت فى وسط الجمـوع صرخـة ، تحمل كل فرحة الدنيا :

ـ (ماهر) بك ..

اخترقت الصرخة أذنى (ماهر) ، الضابط السـابق فى القوات المسلحة المصرية ، وأحد عملاء ورجـال المخـابرات المصرية ، الذين ساهموا فى الحـرب النفسية ضـد العدو الإسرائيلى ، طوال عدة أعوام ناجحة ..

واستدار (ماهر) إلى مصدرها ، ووقع بصره على صاحبها ، الذى اندفع يشق الجموع نحوه ، وهو يهتف بسعادة غامرة :

ـ يا إلهى ! كم تسرنى رؤيتك .

وقبل حتى أن يبتسم (ماهر) ، الذى تعرَّف صاحب الصرخة على الفور ، كان هذا الأخير يعانقه فى حرارة ، ويصافحه بانفعال غير محدود ، ويشدّ على يده فى قوة ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ هل تذكرنى يا (ماهر) بك ؟!

اتسعت ابتسامة (ماهر) ، وهو يقول :

ـ بالطبع أذكرك يا (إبراهيم) .. كيف حالك ؟!

أطلق (إبراهيم) هذا ضحكة عالية ، تموج بالارتياح ، قبل أن يجيب :

ـ أنا فى خير حال .. بفضلك ، بعد اللّه (سبحانه وتعالى) ، فلولاك لكان حالى الآن غير الحال ..

غمغم (ماهر) :

ـ لولاى أنا ؟!

ربّت (إبراهيم) على كتفه بحرارة ، قائلاً ، ومكررًا :

ـ لولاك ، بعد اللّه (سبحانه وتعالى) ، يا (ماهر) بك .

جمدت ملامح (ماهر) بضع لحظات ، قبل أن يستعيد ابتسامته ، وهو يغمغم :

ـ حمدًا للّه على سلامتك يا (إبراهيم) .

نطقها ، وعقله يستعيد ذكريات أربعة أعوام مضت ..

ذكريات أهم عملية فى حياته ..

عملية إنقاذ (إبراهيم) ..

* * *

(إبراهيم) شاب بسيط ، من أبناء (مصر) ، الذين عاشوا مرحلةَ النكسة ، وانكسرت فى أعماقهم حماسات جميلة ، عاشوا يتغنون بها طويلاً ، فانسحقت معها نفوسهم ، وخيَّم الظلام على أحلامهم وآمالهم ، فصاروا يتخبطون فترة كالعميان ، فى سنوات عصيبة عسيرة ، استقر خلالها العدو فى (سيناء) ، وتدلّت قدماه فى مياه قناة (السويس) ، وصدى ضحكاته الساخرة الظافرة يؤذى مسامع كل مصرى وطنى ..

وعلى الرغم من أن (إبراهيم) قد خضع للتجنيد الإجبارى كسواه ، فى تلك الفترة ، التى راحت (مصر) تسعى فيها ؛ لاستعادة جيشها وقوتها ، إلا أن حلم السفر والعمل فى الخارج ظل يراوده ، فى صحوه ومنامه ، كأمل أخير فى الخروج من الأزمة ، وتجاوز المحنة ، التى تصورَ مخطئًا ، كغفة من أهل (مصر) ، أن عبورها أكثر استحالة ، من عبور بحر من النيران ، بزورق من القماش ، المغموس فى بنزين نقى ..

والعجيب أن هذا الحلم لم يفارق (إبراهيم) لفترة طويلة، حتى وهو يشارك رفاقه تدريباتهم ومناوراتهم، ويستمع إلى أحاديثهم، التى تؤكد أن أحدًا منهم لن يخرج من مرحلة التجنيد الإجبارى أو يتجاوزها، إلا بعد مرور المحنة، التى تبدو وكأنه لا خروج منها قط ..

شىء ما فى أعماقه كان يؤكد له أنه سيتجاوزها يومًا ما، على نحو أو آخر ..

ولأن ذهنه منشغل دومًا بأحلامه وأمنياته، ارتكب (إبراهيم) خطأ بسيطًا، أثناء إحدى المناورات، مما أدى إلى إصابته بجرح، استلزم نقله إلى أحد المستشفيات العسكرية للعلاج ..

وفى المستشفى العسكرى، جلس (إبراهيم) ينتظر دوره كالمعتاد، فى صمت وصبر وسكون، وعيناه ترقبان كل ما يحدث حوله، كوسيلة للتسلية البريئة، فى ظروف كهذه ..

ثم وقعت عيناه على (صبحى) ..

ضابط من أصل عربى، ترك مهنته ودولته، وأتى ليقيم فى (مصر) مع زوجته، معلنًا إيمانه بأهداف وطموحات قادتها، ومؤكدًا استعداده للموت من أجلها ..

وفى (مصر)، استقرّ (صبحى)، وحاز القبول لدى بعض المسئولين، فطاب له المقام، وحظى بمقام رفيع، ومنصب ممتاز، وعلاقات قوية، بدت واضحة للغاية، فى تعاملاته داخل المستشفى العسكرى، وأسلوب حديثه مع كبار مديريها ومسئوليها ..

وانبهر (إبراهيم) بوضع (صبحى) هذا فى المستشفى، وانبهر أكثر باقتراب هذا الأخير منه، وجلوسه إلى جواره، بمنتهى البساطة والتواضع، والانهماك معه فى حديث طويل، وكأنهما صديقان قديمان ..

وكعادة المصريين البسطاء، أفرط (إبراهيم) فى الحديث، وراح يدلى بكل ما لديه عن وحدته، ورفاقه، وتدريباتهم، والمناورة التى أصيب فيها أيضًا ..

وباهتمام مغلّف بالهدوء والبساطة، استمع إليه (صبحى) هذا، وتركه يروى كل ما لديه، قبل أن يمنحه ابتسامة كبيرة، ويربّت على كتفه، قائلاً:

- لابد وأن نلتقى كثيرًا يا أخ (إبراهيم) .. سأعطيك عنوانى ورقم هاتفى، وسأنتظر زيارتك.

لم يصدّق (إبراهيم) نفسه، عندما طلب منه (صبحى)

زيارته ، واحتفظ بالورقة التى تحوى العنوان ورقم الهاتف ، وهو يمنى نفسه بأن يساعده هذا الشخص ، صاحب الاتصالات والنفوذ ، فى تحقيق حلمه القديم ..

وفى أول إجازة له ، اتصل (إبراهيم) بذلك الرجل (صبحى) ، فاستقبل الرجل اتصاله بالحرارة والترحاب ، وطلب منه أن يأتى لزيارته فورًا ..

ولم يضع (إبراهيم) لحظة واحدة ..

لقد ذهب فورًا لزيارة (صبحى) ، وكله لهفة فى أن يقصّ عليه حلمه ، وأن يجد لديه مطلبه ..

وفى منزله ، استقبله (صبحى) بحرارة وترحاب أكثر ، ليقفز انبهار (إبراهيم) إلى الذروة ، مع مرأى المنزل الفاخر ، والأثاث الأنيق باهظ الثمن ، والأجهزة التى لم ير لها مثيلاً ، إلا فى أفلام السينما الحديثة فحسب ..

ومع انبهار (إبراهيم) وخفقات قلبه المشدوهة ، راح (صبحى) يتحدّث إليه ، ويسأله عن أحواله ، ولأحوال وحدته ، وآخر أخبار المناورات ، و ...

وفجأة ، سأله (إبراهيم) ، وكأنه لم ينتبه إلى وجوده إلا فى هذه اللحظة :

- سيّد (صبحى) .. ألك معارف فى دول الخليج ؟!

صمت (صبحى) بضع لحظات ، وهو يتطلّع إليه ، قبل أن يبتسم ابتسامة كبيرة ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

- لى أخت تقيم فى (الكويت) ، وزوجها يمتلك تجارة كبيرة هناك .

هتف (إبراهيم) فى لهفة :

- وهل .. هل يمكنك أن تجد لى عملاً لديه ؟!

اتسعت ابتسامة (صبحى) أكثر ، وهو يجيب :

- بالتأكيد .

ولم يكد (إبراهيم) يغادر المنزل بعدها ، وهو يكاد يطير فرحًا ، حتى أطلق (صبحى) هذا ضحكة ، عالية مجلجلة ، والتقط سمّاعة هاتفه ، مغمغمًا :

- طير جديد وقع فى القفص .

فى الليلة نفسها ، وإثر المحادثة الهاتفية ، استقبل (صبحى) ضيفًا آخر ، فى التاسعة والنصف مساءً ، وصافحه فى حرارة ، قائلاً :

- لدينا طير جديد .

سأله ذلك الضيف الجديد (ماهر) فى اهتمام :

ـ وما نوعه ؟!

ولساعة كاملة ، راح (صبحى) يشرح لصديقه (ماهر) كل ما يتعلق بذلك الشاب (إبراهيم) ، قبل أن يقول فى النهاية :

ـ وكما ترى ، هو صيد ممتاز ، سيسعد الأصدقاء محبى السلام ، فى العالم الحر ، وموقعه سيمنحنا الكثير من المعلومات ، التى ستساعدنا على معرفة ما إذا كان المصريون يستعدون بالفعل لحرب ثأرية ، أم أنهم سيستسلمون لحالة الاحتلال هذه .

قال (صبحى) كل هذا ، واستخدم تلك المصطلحات ، التى ميَّزت عالم الجاسوسية ، فى تلك الحقبة ، مطمئنًا إلى أن (ماهر) يعمل إلى جواره ، لصالح المخابرات الإسرائيلية ، التى رمز إليها وهمًا ، باسم (العالم الحر) ، دون أن يخطر بباله ، ولو لحظة واحدة ، أن (ماهر) هذا يعمل لحساب جهاز مخابرات آخر تمامًا ..

لحساب المخابرات العامة المصرية ..

ولقد استمع إليه (ماهر) فى هدوء واهتمام ، كما علمه رجال المخابرات المصرية ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ أريد أن أراه أوَّلاً ، وسأخبرك برأيى بعدها .

ضحك (صبحى) ، قائلاً :

ـ اطمئن .. لقد طلبت منه أن يحضر غدًا مساءً مع كل أوراقه ، فهو يتصوَّر أن لدى من الاتصالات ، ما يمكن أن يتيح له الخروج من وضعه الحالى ، والسفر للعمل فى (الكويت) فورًا .

أدرك (ماهر) على الفور أن (صبحى) قد ألقى شباكه بالفعل حول (إبراهيم) ، وأنه لم يعد أمامه سوى أن ينشب مخالبه فيه ، ويلقيه فى المستنقع ، الذى كاد هو نفسه يقع فيه ، لولا يقظته فى اللحظة الأخيرة ، ولجوئه إلى رجال المخابرات المصرية ..

وبعد منتصف الليلة نفسها بساعة أو يزيد ، التقى (ماهر) بضابط المخابرات المصرى (أ . ص) ، الذى يتابع حالته ، وأخبره بأمر (إبراهيم) ، وما يعدّه (صبحى) الجاسوس له ..

وبكل الحزم ، قال (أ . ص) :

ـ لا تدعه يقع فى الفخ أبدًا يا (ماهر) .. امنعه من هذا بأى ثمن .. هل تفهم .. بأى ثمن .

ثم صمت بضع لحظات ، قبل أن يضيف :

ـ ربما كانت سياسة بعض أجهزة المخابرات الأخرى ، هى أن تترك مثله ، حتى يسقط فى المستنقع ؛ لتزيد من عدد انتصاراتها ، عندما تلقى القبض عليه فيما بعد ، أما نحن فسياستنا تختلف .. إننا نسعى لمنعه من السقوط ، بأية وسيلة كانت .

ووضع يده على كتفه ، مكملاً :

ـ إنها مهمتك .

والتقط (ماهر) الكلمة ، وأقسم فى أعماق نفسه على تنفيذها ، بالأسلوب الذى حدده له (أ . ص) ..

مهما كان الثمن ..

وفى زيارة (إبراهيم) التالية ، كان (ماهر) هناك ، يشاركهم مجلسهم ، ويتعامل مع (إبراهيم) بغلظة وفظاظة وتجاهل ، جعل هذا الأخير يبغضه كل البغض ، ويتصورّ أنه يحاول منعه من السفر للعمل فى (الكويت) ؛ لأنه يغار منه ، ويرفض له الخير ..

وحاول (إبراهيم) أن يجتذب ود (ماهر) بأية وسيلة ،

طوال تلك الليلة ، ولكن (ماهر) ظلّ عابسًا فى وجهه ، متجهمًا معه ، حتى انصرف الشاب ، تاركًا أوراقه للجاسوس (صبحى) ، وهو يلعن (ماهر) فى أعماقه ألف مرة ..

وبعد انصرافه سأل (صبحى) (ماهر) فى حيرة ، عن سر تعاملاته الفظة مع (إبراهيم) ، فأجابه فى حزم :

ـ إنه لا يساوى شيئًا .. كل ما لديه من معلومات يمكننى إحضار ما هو أفضل منه ..

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ وبسعر أقل ..

ليلتها ضحك (صبحى) كما لو لم يضحك من قبل ، وتصورّ إنه قد فهم هدف (ماهر) ، من إبعاد (إبراهيم) ، وقال فى حماس :

ـ أنت على حق .. لماذا نمنحه مكافآت كبيرة .. فلنخبرهم أننا قد جندناه ، ولنمنحهم ما كنا سنحصل عليه من معلومات ، ولنربح نحن مكافأته .

شاركه (ماهر) ضحكته ، وهو يشعر بارتياح عميق فى أعماقه ؛ لأن مهمته قد نجحت من الضربة الأولى ..

ولكنه لم يكتف بهذا ، فما تعلمه من رجال المخابرات المصرية ، جعله لا يستكين لأى نصر عاجل وسريع ؛ لذا فقد التصق أكثر بالجاسوس (صبحى) ، وحضر كل مقابلاته التالية مع (إبراهيم) ، وتأكد من أنه لم يعد يوليه الاهتمام الكافى ، حتى يئس الشاب ، وانصرف نهائيًا ، وهو يبغض (ماهر) أشد البغض ..

ثم قرَّر رجال المخابرات العامة إنهاء قضية الجاسوس (صبحى) ، وتم إلقاء القبض عليه ، فى مارس ١٩٦٩م ..

وفى التاسع والعشرين من أبريل ، من العام نفسه ، نشرت الصحف تفاصيل إلقاء القبض على الجاسوس (صبحى) ، ونشرت صورته ، وصورة (ماهر) ، ودوره فى العملية ، التى لعب فيها دور الجاسوس المزدوج ؛ ليخدع المخابرات الإسرائيلية وجاسوسها ، ويوقع الجميع فى النهاية ..

وقرأ (إبراهيم) الصحف ، وشاهد الصور ..

ووقع قلبه بين قدميه ..

لحظتها فقط فهم (إبراهيم) ما الذى كان يفعله (ماهر) ، عندما كان يتعامل معه بكل الغلظة والخشونة والصلف ، أثناء زيارته للجاسوس (صبحى) ..

لحظتها فقط أدرك أنه قد منعه من السقوط فى مستنقع رهيب ، لو دفع فيه قدميه ، لحملت الصحف صورته ، إلى جوار صورة (صبحى) ، فى ذلك اليوم ..

وتحولَت مشاعره فى لحظة واحدة تجاه (ماهر) ، من البغض إلى التقدير ..

كل التقدير ..

« لقد أنقذت حياتى ومستقبلى يا (ماهر) بك .. »

انتزعت عبارة (إبراهيم) (ماهر) من أفكاره وذكرياته ، فاستعاد ابتسامته ، وهو يربّت على كتف (إبراهيم) ، قائلاً :

- لم أكن وحدى يا (إبراهيم) .

هتف (إبراهيم) فى حرارة :

- أعلم هذا يا (ماهر) بك .. أعلم هذا ..

ثم عاد يعانقه ، ليهمس فى أذنه ..

- أبلغهم تحياتى .. وشكرى أيضًا .. شكرى الجزيل .

ابتسم (ماهر) مرة أخرى ، قائلاً :

- سأفعل .

مرة أخرى ، تصافحا ، وافترقا وسط الجموع ، التى تحتفل بالنصر ، و(ماهر) يشعر بالسعادة والفخر ، والزهو بنفسه ؛ لأنه شارك يومًا فى تلك العملية ، التى ما زال يعتبرها أهم عملية فى حياته ..

عملية إنقاذ .. مواطن مصرى ..

* * *

حرب المعرفة

(المعلومات)

٢ ـ فى السر

٢ ـ فى الســـر..

توقفنا فى المرة السابقة ، فى حديثنا عن المعلومات ، عند القسم الخاص بالمعلومات السرية ، التى تحصل عليها أو تسعى للحصول عليها ، كل أجهزة المخابرات ، فى كل مكان فى العالم ..

والمقصود هنا بالمعلومات السرية ، هو كل معلومة ، يسعى الخصم إلى إحاطتها بالسرية والكتمان ، ومنع وصولها إلى الآخرين ، بكل الوسائل الممكنة ، بدءًا من التكتم ، وحتى مرحلة قتل كل من يحصل عليها ، أو حتى يقترب منها ..

ومن الواضح أن تلك المعلومات السرية ، تكون فى طبيعتها أشد أهمية وخطورة ، وأكثر قدرة على التأثير فى مجريات الأحداث ، من المعلومات المعلنة ؛ لذا ، فبقدر ما يحرص الخصم على إخفاء معلوماته ، تكون صعوبة السعى للحصول عليها ، من قبل الطرف الآخر ..

ووسائل بلوغ المعلومات السرية عديدة ومختلفة ، وتبدأ من عمليات المراقبة السرية ، إما عن بعد ، عن طريق اتخاذ مواقع مناسبة للمراقبة ، والتصوير ، ورصد متغيرات

الأحداث ، وإما عن قرب ، بوساطة التسلُّل إلى أماكن صنع القرار ، أو المنازل الآمنة ، التى تتم فيها اللقاءات ، والاجتماعات ، وتدور داخلها الأحاديث ، وتحاك فيها الخطط ؛ لزرع أجهزة تصوير وتنصُّت ، ونقل وتسجيل كل ما يحدث ..

والوسيلة الثانية أكثر صعوبة وتعقيدًا بالتأكيد ، إذ إن الخصم يحيط تلك الأماكن حتمًا بكل وسائل الحماية والمراقبة ؛ لمنع وصول أى مخلوق إليها ، كما أن التقنية الحديثة قد أدَّت إلى تطوير نظم الأمن أيضًا ، بحيث أصبحت هناك وسائل إلكترونية ورقمية ؛ للكشف عن وجود آلات المراقبة والتنصت فى المكان ، كما توجد أيضًا وسائل مماثلة ، للشوشرة على الوسائل الأولى ، وخداعها ، والتعمية عليها .. وهكذا ..

وتعتبر فترة الحرب الباردة ، بين الأمريكيين والسوفيت ، من أنشط وأزهى الفترات ، فى استخدام وتطوير وابتكار نظم المراقبة والتنصُّت ، ومن أشهر الوقائع ، فى هذا المضمار ، أن السوفيت قد أهدوا السفير الأمريكى فى (موسكو) ساعة حائط أنيقة ، تقديرًا منهم لإعادة افتتاح وتجديد السفارة ، ولأن قواعد الدبلوماسية تقول : إنه من اللياقة أن يضع السفير الأمريكى الساعة ، فى مكتبه الخاص ، حتى يراها مندوب

وزارة الخارجية السوفيتى، كلما أتى لزيارته، لسبب أو آخر، ويتيقّن مع وجودها من أن الأمريكيين يحترمون بلاده، فقد أصرّ الملحق العسكرى للسفارة الأمريكية ـ آنذاك ـ وكان يتبع المخابرات الأمريكية كالمعتاد، على فحص الساعة جيدًا، قبل أن توضع فى حجرة السفير، خشية أن تحوى أجهزة تنصت ومراقبة ..

وبالفعل، استقدم الملحق العسكرى بعض الخبراء، الذين فحصوا الساعة بمنتهى الدقة، ثم قرّروا أنها لا تحوى أية أجهزة تنصت أو مراقبة، وأنها صامتة من الداخل تمامًا، وفقًا لتعبيرهم ..

وهنا، عادت الساعة إلى السفير، الذى علّقها على جدار حجرة مكتبه، وأوصلها بالتيار الكهربى، لتبدأ عملها على الفور ..

وبعد عامين كاملين، وبالمصادفة البحتة، التى أدت إلى سقوط الساعة وتحطمها، وسعى الخبراء الأمريكيون إلى محاولة إصلاحها، وفوجئ الكل بأن الساعة تحوى بالفعل جهاز تنصت مدهش، استخدم فيه السوفيت تقنية جديدة وبسيطة، فما أن يتم إيصال الساعة بالكهرباء لتشغيلها، حتى يعمل داخلها

جهاز خاص، يلتقط كل الذبذبات داخل الحجرة، وبخاصة تلك الناشئة عن أحاديث السفير، وما يتلقاه من اتصالات هاتفية، وينقلها إلى الجدار، بعد تضخيمها إلى الحد الكافى، الذى يساعد جاسوسًا تقنيًا، يتخفى فى دور بستانى حديقة السفارة، على إعادة التقاطها، من أسفل الجدار، عند قاعدة الحديقة، وتحويلها إلى منحنيات مسجلة، يقوم الخبراء السوفيت بترجمتها إلى كلمات واضحة مفهومة، تكشف كل ما يدور فى مكتب السفير ..

كان هذا فى خمسينات القرن العشرين ..

أما الآن فالصورة تختلف تمام الاختلاف، وبخاصة مع تطوّر التقنية، فى كافة المجالات، وانعكاس هذا على عالم الجاسوسية؛ لتظهر إلى الوجود آلات التصوير الرقمية، التى تمتلك القدرة على التقاط الصور، والصوت أيضًا، من مسافات كبيرة جدًا، وميكروفونات الليزر، التى يمكن تصويبها إلى جدار منزل ما، لتنقل كل ما يدور داخله من أحاديث، عبر اهتزازات الليزر المرتدّة، حتى ولو كان من داخل المكان قد أغلقوا كل الأبواب والنوافذ ..

وحتى لو تحدثوا همسًا ..

وعلى الجانب الآخر ، ظهرت أجهزة منع الذبذبات ، وكشف الليزر ، وتغيير الأصوات ، وتشتيت موجاتها ، إلى آخر ما تنتجه قريحة البشر ، وتبتكره عقول عمالقة الجاسوسية ، والجاسوسية المضادة ، فى كافة المجالات ..

ولأن حرب التقنية ، والتقنية المضادة ، لا تتوقف أبدًا ، مهما طال الزمن ، ومهما بلغ تطوّر أقمار التجسُس الصناعية ، والوسائل المفسدة والمربكة لها (كما شاهدنا فى حرب العراق) ، فهذا يقودنا إلى أفضل وأقوى وسائل الحصول على المعلومات السرية ..

الجواسيس ..

أو بمعنى أدق ، العمل على زرع جاسوس ما ، فى قلب مناطق ومراكز صنع القرار لخصمك ، أو السعى إلى تجنيد عميل ما ، من قلب الخصم مباشرة ..

ومن الخطأ أن تتصوّر أن إحدى الوسيلتين أقل أو أكثر صعوبة من الأخرى ، فزرع الجاسوس عملية شديدة التعقيد ، وعسيرة المنال إلى درجة كبيرة ؛ فكل مجتمع له نظمه ،

وعاداته ، وتقاليده ، وسماته المميَّزة ، مما يكسب أفراده صفات خاصة ، قد لا يدركونها فيما بينهم ، ولكنهم سيكشفون حتمًا أى شخص ، لا يمتلك تلك الصفات ، إذا ما تواجد وسطهم ..

لذا ، نجد أن أنجح عمليات زرع الجواسيس ، فى التاريخ كله ، كانت داخل الدول ، التى تعتمد فى منشأها على المهاجرين ، الذين يفدون إليها من مختلف البلدان ، وبمختلف الجنسيات واللغات ، والعادات والتقاليد ..

ففى هذه الحالة ، يتقبَّل المجتمع كله التعامل مع وافد جديد ، ومهاجر أتى من بلد آخر ، حاملاً عاداته وسماته الخاصة ، مما يساعد على زرع جاسوس ما ، وسط هذا الخصم ، دون أن ينتبه إليه أحد ، لو تم إعداده وتغطيته بشكل جيد ..

وخلال الحرب الباردة أيضًا ، نجحت المخابرات السوفيتية ، فى زرع الجواسيس ، داخل المجتمع الأمريكى المفتوح ، الذى اعتاد استقبال مهاجرين جدد ، فى كل يوم ، بأكثر كثيرًا مما نجح الأمريكيون فى زرعه ، داخل المجتمع السوفيتى المغلق المحدود ..

وفى حربنا الطويلة أيضًا ، مع العدو الإسرائيلى ، كانت نسبة نجاحنا فى زرع جواسيسنا فى قلبه ، مع استقباله للمهاجرين ، من كافة أنحاء العالم ، أكبر بكثير من نسبة نجاحه فى زرع جواسيسه فى مجتمعاتنا ، وإن كان اعتماده الرئيسى فى هذا ، على جواسيس نشئوا وترعرعوا فى طفولتهم وصباهم ، وشبابهم أيضًا ، فى الدول التى تم زرعهم فيها فيما بعد ، أو انتموا إلى جنسياتها ذات يوم ، عن طريق الأب أو الأم ، حتى ولو نشئوا بعدها فى دول أخرى ..

وتاريخنا يحوى عدة عمليات ناجحة للغاية ، لمصريين تم زرعهم فى قلب العدو ، واكتسبوا جنسيته ، وثقته ، بل واحتل بعضهم فيه مكانة لا بأس بها ، مثل (رفعت الجمّال) ، و(عمرو طلبه) ، وغيرهم ..

وتاريخ حرب الجاسوسية لدينا ، يحمل أيضًا قصصًا لبعض الأجانب ، الذين عملوا لحسابنا ، وتم زرعهم كعملاء وجواسيس ، فى قلب العدو ، وحصدوا منه معلومات لا حصر لها ، ولعل أشهرهم على الإطلاق (كيفورك يعقوبيان) ، ذلك الأرمنى ، الذى نشأ فى (مصر) ، واعتبر نفسه مصريًا ، قلبًا وقالبًا ، وتم زرعه داخل (إسرائيل) ، فى واحدة من العمليات الناجحة ..

وعملية زرع الجاسوس ، فى مجتمع جديد ، عملية شاقة للغاية ، وجهد ما بعده جهد ، إذ يكون عليه ، قبل أن يصل إلى مجتمعه الجديد ، أن يحفظ عن ظهر قلب هويته ، التى تم منحه إياها ؛ لتبرير انتقاله إلى المجتمع الجديد ، والتعايش معها ، وهضمها إلى درجة التشبُّع ، بحيث يمكنه أن يردِّد قصة حياة ، لم يعش فعليًا لحظة واحدة منها ، حتى لو تم إيقاظه من نوم عميق ، أو إرهاقه لفترات طويلة بلا نوم ..

باختصار ، عليه أن يمحو هويته الحقيقية تمامًا من ذهنه ، ويزرع بدلاً منها هويته الجديدة ، بكل ما تتضمنه من تاريخ ، وذكريات ، وعقيدة ، وانتماء ، ومخاوف أيضًا ..

ثم إنه من الضرورى أن يدرس سمات وأساسيات المجتمع ، الذى يفترض مجيئه منه ، والمجتمع الذى سيتم زرعه فيه ، كما أنه من الضرورى ، بل ومن المحتم أن يكون لقصته أساس حقيقى ، ينتهى بجزء مبتور أو غامض ، أو يستحيل التحقُّق منه أو من صحته ، بحيث تصل التحريات عنه دومًا إلى طريق مسدود ، إذا ما دار الشك حول حقيقة هويته ..

زرع الجاسوس يحتاج إذن إلى براعة مدهشة ، من جهاز المخابرات ، الذى سيدعم عملية الزرع ، وإلى شخص مستعد لدفع حياته نفسها ، من أجل وطنه ، إذا ما اقتضت الأمور هذا ..

أما بالنسبة للعميل ، فالأمر يختلف و .....

ولهذا حديث قادم .. إن شاء الله .

* * *

قصة العدد

جاسوس المحيط

(من قصص الجاسوسية العالمية)

١ـ الأعمـــاق ..

● على الرغم من أن الحرب العالمية الثانية ، كانت تمرّ بأعنف وأصعب مراحلها ، فى تلك الفترة ، من عام ١٩٤١م ، إلا أن المدمرة الألمانية (شتاين) ، راحت تتهادى فوق مياه المحيط الأطلنطى ، غرب الجزر البريطانية ، فى هدوء واثق ، على نحو يوحى بأنها قد سيطرت تمامًا على المنطقة ، وضمنت تفوّقها فى بقعتها ، ورلحت تجوب ما حولها ؛ لاصطياد أية سفن أمريكية ، تحاول نقل العتاد أو السلاح ، إلى البريطانيين ، كمحاولة لضبط ميزان القوى ، الذى يميل أكثر وأكثر ، نحو الجانب النازى ، مع انتصاراته المتوالية الساحقة ، وسيطرته على المجال الجوى الأوروبى ، إلى الحد الذى دفعه لتركيز ضرباته الجويّة على قصف العاصمة (لندن) ، فى كثافة غير مسبوقة ، كادت توقع بالأسد البريطانى العجوز ، فى هاوية الهزيمة ونير الاحتلال النازى البغيض ..

وعلى متن (شتاين) ، وقف قبطانها (هانز رودلف) ، يراقب المحيط بمنظاره المقرّب القوى ، قبل أن يقول فى هدوء عجيب ، حمل تلك النبرة المتغطرسة ، التى اشتهر بها بين أقرانه :

ـ لست أظنهم يجرءون على الاقتراب منا ، بعدما حققناه من انتصارات بحرية ، يفخر بها الجنرال (دوينتز) .

وافقه مساعده (موين) بإيماءة من رأسه ، قبل أن يبتسم ، قائلاً :

ـ بالتأكيد يا قبطان .. لقد أغرقنا ست سفن أمريكية ، فى الآونة الأخيرة ، ودفعنا غواصتين بريطانيتين إلى الأعماق .

انتفخت أوداج القبطان ، وهو يقول :

ـ عظيم .. عظيم ..

لم تكد كلماته تغادر شفتيه ، حتى دلف ضابط الاتصالات إلى قمرة القيادة ، وأدّى التحية العسكرية النازية ، هاتفًا بحياة الفوهلر (أدولف هتلر) ، قبل أن يقول :

ـ غوّاصة بريطانية تقترب يا قبطان .

وعلى عكس المتوقّع ، التفت إليه القبطان فى هدوء شديد ، قائلاً :

ـ يا للبريطانيين ! إنهم لا يتعلمون أبدًا .

قالها ، وغـادر قمـرة القيـادة ، مـع ضـابط الاتصـالات ، إلى حجرة خاصـة ، فى قـاع المدمـرة ، واستمع فى اهتمام إلى صفير متقطّع منتظم ، ينبعث من جهـاز احتـل مساحة كبيرة من الحجرة ، وضابط الاتصالات يقول :

ـ إنها تقترب فى بطء حذر ، على مسافة ثلاثة أميال بحرية ، وفى عمق كبير نسبيًا .

أشار القبطان إلى الجهاز الكبير ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ هل التقطها فى الوقت المناسب ؟!

أومأ ضابط الاتصالات برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى حماس :

ـ فى الوقت المناسب تمامًا يا سيّدى القبطـان .. وأظنه الجهاز الوحيد ، القادر على هذا .

عاد القبطان يومئ برأسه ، مكرّرًا عبارته المعتادة :

ـ عظيم .. عظيم ..

واستدار يزمع المغادرة ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ أخبر المهندس (جينشر) أن جهازه يعمل بكفاءة تامة ، وأنه يمكن إنتاجه على نطاق واسع ، يضمن لنا السيطرة التامة والكاملة ، على بحار الأرض ومحيطاتها .

سأله ضابط الاتصالات فى لهفة :

ـ وماذا عن الغوّاصة البريطانية يا سيّدى ؟!

التفت إليه القبطان بنظرة نارية ، قائلاً فى صرامة :

ـ وماذا عنها ؟! سنتعامل معها كالمعتاد بالطبع .

ارتسمت ابتسامة كبيرة على شفتى ضابط الاتصالات ، وهو يقول :

ـ كما تأمر يا سيّدى القبطان .

وفى هدوء تام ، وثقة بلا حدود ، صعد القبطان إلى قمرة القيادة ، وعاد يلتقط منظاره المقرّب ، فسأله مساعده (موين) فى اهتمام :

ـ هل رصدها ؟!

أجابه القبطان فى حزم :

ـ بمنتهى الدقة .

ثم عاد يهزّ رأسه ، مكرّرًا :

ـ البريطانيون لا يتعلمون أبدًا .

نطقها فى نفس اللحظة ، التى انطلقت فيها مدافع المدمرة (شتاين) ، التى تم تصويبها بدقة مدهشة ، نحو هدف يختفى تحت سطح المحيط ، و ....

ودوت الانفجارات قوية عنيفة ..

وبينما تغوص الغواصة البريطانية المصابة ، فى أعمق أعماق المحيط ، كانت المدمرة النازية (شتاين) تواصل تهاديها فوق المياه ، وفوقها يرتفع العلم النازى الأحمر والأبيض ، بصليبه المعقوف الرهيب ، وقد انتفخت أوداج قبطانها وضباطها بالفخر والزهو والظفر ..

بلا حدود ..

* * *

« الوضع بالغ الخطورة بالفعل .. »

نطق رئيس الوزراء البريطانى العبارة ، بكل توتر الدنيا ، داخل مكتبه الاحتياطى السرى ، فى قلب العاصمة (لندن) ، ثم لوَّح بيده ، مستطردًا ؛ فى مواجهة مدير المخابرات البريطانية :

ـ الألمان يحاصروننا على نحو مخيف ، وطائراتهم تقصف مدننا وسفن أسطولنا طوال الوقت ، وأخيرًا وضعوا تلك

المدمرة (شتاين) ، فى مواجهة كل ما يصلنا من إمدادات أمريكية ، مما يجعلنا فى موقف عصيب للغاية ؛ فلو انقطعت عنا الإمدادات الأمريكية ، ستنفذ مواردنا بسرعة ، ويصبح من العسير علينا أن نتصدَّى للهجوم النازى المتواصل ، كما أننا قد خسرنا ، خلال الأسبوعين الماضيين فحسب ، سبع قطع من أسطولنا ؛ بسبب جهاز جديد ، ابتكره مهندس ألمانى ، يمكنه رصد غواصاتنا ، فى أعماق المحيط ، قبل أن تبلغ المدى المناسب لإطلاق طوربيداتها ، وإصابة أهدافها .

شد مدير المخابرات قامته ، وهو يقول :

ـ لقد أطلقنا جواسيسنا وعملاءنا فى (برلين) ؛ لجمع كل المعلومات الممكنة ، عن ذلك الجهاز الجديد ، يا سيِّدى رئيس الوزراء .

مال رئيس الوزراء إلى الأمام ، وهو ينفث دخان سيجاره الضخم ، متسائلاً فى لهفة واهتمام :

ـ عظيم .. معرفتنا لذلك الجهاز السرى ، سوف تساعدنا حتمًا على تقليل خسائرنا ، وإيجاد وسيلة لفك الحصار عن سواحلنا ، فى الوقت المناسب .

تردَّد مدير المخابرات لحظةً ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أن كل رجالنا لم ينجحوا ، فى كشف سر ذلك الجهاز العجيب ، يا سيادة رئيس الوزراء .

تراجع رئيس الوزراء البريطانى فى مقعده كالمصعوق ، وهو يهتف :

ـ لم ينجحوا ؟!

نطقها بمزيج من الغضب ، والاستنكار ، والمرارة ، والأسف ، على نحو جعل مدير المخابرات يواصل فى سرعة :

ـ النازيون يحيطون جهازهم هذا بنطاق شديد التعقيد ، من السرية والحماية ، ويضعونه فى أضيق نطاق ممكن ، بحيث يستحيل أن يتسلَّل جواسيسنا إليه ، لكشف سره ، أو نقل تصميماته ، ولكن أحد رجالنا ، فى قلب القيادة ، وداخل مكتب الأدميرال (دوينتز) ، قائد البحرية ، أبلغنا أن ذلك الجهاز يعتمد على وجود مجسَّات شديدة الحساسية ، يمكنها التقاط أية ذبذبات منتظمة ، تحت سطح الماء ، وتحديد مصدرها وموقعها ، وسرعة تحرُّكها ، عن طريق مجموعات من المعادلات الرياضية الدقيقة ، التى تتم ترجمتها إلى إحداثيات ثابتة ، يتم تصويب المدفعية إليها مباشرة ، بحيث تبلغ دقة إصابة الهدف حدًّا غير مسبوق .

مطَّ رئيس الوزراء البريطانى شفتيه فى ضيق ، وهو يقول :

ـ وماذا فى هذا ؟! خبراؤنا توصَّلوا إلى الأمر نفسه ، دون الحاجة إلى جواسيس أو عملاء .

أشار مدير المخابرات بسبَّابته ، قائلاً فى حزم :

ـ ولكن الجواسيس والعملاء منحونا معلومة مهمة جدًّا ، لم يدركها الخبراء حتمًا ، يا سيادة رئيس الوزراء .

اعتدل رئيس الوزراء مرة أخرى ، متسائلاً فى اهتمام :

ـ وما هى ؟!

وأبلغه مدير المخابرات ما لديه ..

وكانت المعلومة بالفعل مهمة ..

مهمة إلى أقصى حد ..

* * *

٢ـ واحد فقط ..

• بدا رجل المخابرات البريطانى المحنَّك سير (إدوارد سنكلير) ، هادئًا واثقًا كعادته ، وهو يقف أمام مدير المخابرات ، فى مكتب هذا الأخير ، الذى أشار إليه بالجلوس ، قائلاً فى لهجة خاصة ، تشفّ عن أهمية الموقف وخطورته :

ـ إننى عائد على التو ، من المكتب السرى لرئيس الوزراء يا (سنكلير) .

سأله (سنكلير) فى هدوء :

ـ بشأن ماذا ؟!

مال المدير نحوه ، قائلاً فى حزم :

ـ بشأن ذلك الجهاز النازى الجديد .

لم تبد لمحة واحدة من الدهشة ، على وجه أو صوت (سنكلير) ، وهو يقول ، ببرود بريطانى فائق :

ـ هل أخبرته أنه توجد نسخة مكتملة واحدة ، من ذلك الجهاز ؟!

أومأ المدير برأسه ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ نعم .. أخبرته أن جواسيسنا قد كشفوا أن الألمان لم يصنعوا سوى نسخة واحدة من جهاز رصد الأعماق هذا ، وهى تلك النسخةِ على متن المدمرة (شتاين) ، والتى أثبتت نجاحها الفائق ، خلال الأسبوعين الماضيين ، خاصة وأن مخترع الجهاز ، المهندس (جينشر) ، يرافق (شتاين) فى رحلتها هذه ؛ لرصد وتحليل النتائج ، وإجراء التعديلات اللازمة على النسخة الموجودة هناك ؛ بحيث يتم تفادى وتلافى أية أخطاء تقديرية بها ، وإنه ما أن تعود (شتاين) إلى الموانى الألمانية ، مع تقرير قبطانها ، وتعديلات (جينشر) ، حتى يتم إنتاج الجهاز بالجملة ، وتزويد كل المدمرات الألمانية به ..

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف فى توتر ، مشيرًا بيده :

ـ هل تعلم ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

أومأ (سنكلير) برأسه ، مجيبًا بهدوئه الأسطورى :

ـ بالطبع .. قوة الألمان البحرية ستتضاعف ، وقدرتهم على اصطياد غواصاتنا ، وإغراق مدمراتنا ، ستبلغ حدًّا

لا قبل لنا به ، بحيث سيصبح حصارهم لنا كاملاً ، ويصبح من المستحيل أن ننتصر فى هذه الحرب .

هتف المدير ، معتدلاً :

ـ بالضبط !

ثم نهض من خلف مكتبه ، متابعًا فى انفعال :

ـ ووفقًا لهذا ، لا بد من منع وصول المدمرة (شتاين) إلى الموانى الألمانية بأى ثمن .. على الأقل ليس وذلك الجهاز على متنها سالمًا .

تراجع (سنكلير) فى مقعده بهدوء ، وبدت على وجهه علامات التفكير لبضع لحظات ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ وفقًا للتقارير الواردة من (برلين) ، فالجستابو يتولى الإشراف على طاقم المدمرة (شتاين) طوال الوقت ؛ بسبب وجود جهاز خطير كهذا على متنها ، حتى إنها القطعة البحرية النازية الوحيدة ، التى يوجد داخلها مكتب لجهاز (الجستابو) ، ومن المستحيل تقريبًا زرع جاسوس على سطحها ، أو تجنيد أحد أفراد طاقمها ، الذين يتم اختيارهم بعد فحص طويل ، ومتابعة بالغة الدقة ؛ لضمان ولاءهم

للحزب النازى ، ثم إنها لا تتوقف إلا فى ميناء (برست) الفرنسى فقط ؛ للتزوّد بالمؤن والوقود ، بين حين وآخر ، وأثناء رسوّها هناك ، تحاط بحراسة دقيقة للغاية ، ولا يُسمح لبحارتها بالهبوط إلى الميناء ، إلا لساعة واحدة ، ويتم توقيع عقوبات صارمة قاسية ، على كل من يتأخر منهم ، ولو لدقيقة واحدة ..

والتقط نفسًا عميقًا ، ثم تابع فى حزم :

ـ باختصار ، لا يمنحوننا لحظة واحدة ، لمحاولة التأثير فى أحد أفراد الطاقم ، أو لدس أحد أفرادنا بينهم .

التقى حاجبا مدير المخابرات فى شدة ، وهو يقول :

ـ ولكنها مسألة حياة أو موت يا (سنكلير) .. حياة (بريطانيا) أو موتها .. هل تفهم ؟! مسألة حياة أو موت .

نهض (سنكلير) فى هدوء ، وشدّ قامته فى اعتداد ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا سيّدى .

بدا مدير المخابرات شديد الحزم والصرامة ، وهو يشير إليه ، قائلاً :

- سيادة رئيس الوزراء أسند العملية كلها إليك يا (سنكلير) ، وهو واثق من أنك لن تخذله .

صمت (سنكلير) بضع لحظات ، وكأنه يدير الأمر كله فى رأسه ، ثم كرَّر فى حزم واثق :

- اطمئن يا سيِّدى .. اطمئن .

وغادر (سنكلير) الحجرة ، وهو يدرك أن مهمته عسيرة إلى أقصى حد ..

الألمان ألقوا بثقلهم كله على ذلك الجهاز الجديد ، القادر على اصطياد كل الغوَّاصات المعادية لهم ، وصنعوا حوله نطاقًا سميكًا من الحماية ، على نحو غير مسبوق ، ومدمرتهم ستعود إلى موانيهم خلال عشرة أيام فحسب ، وهذا يمنحه وقتًا ضئيلاً للغاية ، للتفكير والتدبير ..

والتنفيذ أيضًا ..

عشرة أيام فحسب ..

أو أقل ..

ولكن ليس أكثر .. أبدًا ..

ولأنه رجل مخابرات محنَّك قدير ، استحق عن جدارة لقب (سير) ، الذى منحته إياه الملكة ، تقديرًا لوطنيته وخدماته للتاج ، كان يدرك جيِّدًا أنه من المستحيل أن يتصدَّى عقل واحد ، لكل هذه التحديات ، لذا فقد انتقى بسرعة مجموعة خاصة من رجاله ، وقرَّر الاجتماع بهم ، فى مساء اليوم نفسه ؛ لمناقشة الموقف ، والبحث عن وسيلة لاختراق نطاق الأمن السميك ، حول المدمرة النازية (شتاين) ..

وحول مائدة الاجتماعات ، التف فريق (سنكلير) ، وطرح عليهم هو تفاصيل العملية كلها ، وصعوباتها ، وتعقيداتها ، ثم طلب معرفة آرائهم حولها ..

ولدقيقة كاملة أو يزيد ، ظلّ الكل صامتًا ، يدرس الموقف مرات ومرات ، قبل أن يقول أحد الرجال فى توتر :

- للوهلة الأولى ، تبدو العملية مستحيلة تمامًا يا سير (سنكلير) ؛ فمن الواضح أن الألمان ليسوا مستعدين لمنح أى مخلوق أدنى فرصة ، لإفساد أو تدمير جهازهم الجديد .

هزَّ (سنكلير) رأسه فى حزم ، قائلاً :

- لست أؤمن بكلمة (مستحيل) هذه .. صحيح أن العقول

النازية قد أحاطت (شتاين) وطاقمها بنطاق أمنى محكم ، ولكنكم تعرفون القاعدة الذهبية .. لا يوجد نطاق أمنى ، مهما بلغت دقته ، دون ثغرة ما .. هناك حتمًا ثغرة ، فى مكان مجهول ، لم ينتبه إليه أحد .. ثغرة قد تبدو تافهة ، ولكنها ، بشىء من البراعة والذكاء ، تستطيع أن تؤمّن لنا مدخلاً ، إلى قلب (شتاين) .

تساءل أحد الرجال فى اهتمام :

- هل مهمتنا الرئيسية هى تدمير ذلك الجهاز الجديد ؟!

صمت (سنكلير) بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

- كلاً ..

وقبل أن تتفجَّر الدهشة فى وجوههم ، تابع فى صرامة :

- بل مهمتنا هى تدمير المدمرة (شتاين) كلها ؛ للقضاء على الجهاز الجديد ، ومخترعه المهندس (جينشر) ، وكل من تعامل معه ، خلال هذه الرحلة التجريبية ، بحيث يفقد النازيون كل خيط يتعلَّق به ، وبهذا يضطرون إلى إعادة التعامل مع الموقف كله ، من نقطة بعيدة ، تمنحنا بعض الوقت ؛ للقيام بعمليات أكثر تعقيدًا ، لتطوير وسائلنا ، وكشف أسرار وتركيبات ذلك الجهاز .

ران صمت عميق على المكان ، والرجال يتبادلون نظرة حائرة متوترة ، قبل أن يخترق أحدهم حاجز الصمت ، قائلاً فى حذر :

- ألا توجد وسيلة لقصف المدمرة (شتاين) تلك ، بوساطة طائراتنا ، أو زرع الألغام فى قاعها ، أو ...

قاطعه (سنكلير) فى صرامة :

- النازيون يؤمنون حماية مدهشة لمدمرتهم ، كما أن الجهاز على متنها يكشف أية محاولة من الضفادع البشرية للاقتراب منها ، أو زرع أية ألغام فى قاعها .

عاد الرجال إلى صمتهم وحيرتهم بعض الوقت ، قبل أن يعتدل أحدهم فجأة ، قائلاً :

- ما دام الأمر يحتاج إلى فكرة عبقرية خلاَّقة ، فأنا أرشح شابًا بعينه ..

قالها ، وطرح اسم أحد الشباب ، الذين انضموا حديثًا لجهاز المخابرات البريطانى ..

والواقع أن ترشيحه كان مدهشًا ..

بحق ..

* * *

٣ـ الخطــــــة ..

● شدّ رجل المخابرات الشاب (آيان فليمنج) قامته فى اعتداد ، وهو يدلف إلى قاعة الاجتماعات الرئيسية ، حيث التف سير (إدوارد سنكلير) وفريقه حول مائدة بيضاوية كبيرة ، وعيونهم كلها تتطلع إليه فى اهتمام ، مما جعل شيئًا من التوتر يسرى فى عروقه ، وهو يؤدى التحية العسكرية ، قائلاً :

ـ الضابط (فليمنج) ، فى خدمتك يا سيدى .

رمقه (سنكلير) بنظرة طويلة صامتة ، تفحصه خلالها ، من قمة رأسه ، حتى أخمص قدميه ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ أنت تنتمى إلى عائلة (فليمنج) العريقة أيها الشاب .. أليس كذلك ؟!

لم يرق هذا الأسلوب للشاب ، الذى بدا صوته متحديًا إلى حد ما ، وهو يجيب :

ـ بلى يا سيدى ، ولكننى ..

قاطعه (سنكلير) ، وكأنما لا يبالى بحديثه ، وهو يتابع :

ـ أسرتك حاولت إلحاقك بكلية عسكرية ، ولكن استهتارك أدى إلى فصلك منها ، وعنادك ومنعك من العمل فى مؤسسة الأسرة ، حتى ألحقك أحد أصدقاء العائلة بعملك هذا .

زفر الشاب فى شىء من التوتر ، واختلس نظرة إلى الرجال الملتفين حول المائدة ، والذين تطلعوا جميعًا إليه فى اهتمام وانتباه ، قبل أن يقول ، فى تحد واضح :

ـ ألنا هنا لمراجعة ملف خدمتى يا سيدى ؟!

رمقه (سنكلير) بنظرة أخرى ، يصعب أن تستشف منها أية معان ، ثم لم يلبث أن قال فى حزم :

ـ أنت هنا ؛ لأنهم أكدوا أنك الشخص المناسب لما نواجهه .

هزّ (آيان) كتفيه ، قائلاً فى اقتضاب :

ـ ربما .

أشار إليه (سنكلير) بالجلوس ، وهو يقول :

ـ يقولون : إنك تمتلك خيالاً خصبًا ، فيما يتعلق بالعمل ، وأن هذا الخيال قد أنجز بضع عمليات ناجحة ، على الرغم من أنه يبدو لى أشبه بخيال الروايات ، بأكثر مما هو خيالاً عمليًا .

ابتسم الشاب فى ثقة ، وهو يقول :

ـ كذلك يراه الأعداء أيضًا ، ولهذا بالذات لا يتصورون حدوثه .

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا :

ـ وهذا سر نجاحه .

صمت (سنكلير) تمامًا ، بعد أن ألقى الشاب عبارته الأخيرة ، وراح يتطلع إليه فى اهتمام ، وقد وقر فى ذهنه أنه أمام الجيل الجديد ، فى جهاز المخابرات البريطانى ..

الجيل المفعم بالحيوية ، والنشاط ، والثقة ، والخيال ..

وفى هدوء واهتمام ، أشار بيده إلى الشاب ، قائلاً :

ـ اسمع إلىَّ جيدًا .. سأشرح لك العملية كلها .

وطوال نصف ساعة متصلة ، راح يروى للشاب كل شىء ..

وكل التفاصيل ..

وعلى الرغم من الانتباه الشديد ، الذى حملته ملامح الشاب ، إلا أنه لم يقاطع سير (سنكلير) مرة واحدة ، حتى انتهى رجل المخابرات المحنك من روايته ، فاعتدل الشاب على مقعده ، وقال :

ـ إنها عملية معقدة بالفعل .

غمغم (سنكلير) :

ـ أليس كذلك ؟!

تراجع الشاب فى مقعده ، وتابع فى هدوء ، يحمل لمحة ساخرة :

ـ ولكنها ليست مستحيلة .

بدت الدهشة على وجوه الجميع ، فيما عدا ذلك الذى رشَّح الشاب ، والذى بدا شديد الاهتمام ، وهو يسأله :

ـ ألديك فكرة ما ؟!

نهض الشاب من مقعده فجأة ، وهو يقول :

ـ النازيون وضعوا كل شىء فى اعتبارهم ، وأحكموا تطويق نظامهم الأمنى ، فيما عدا نقطة واحدة .

سأله (سنكلير) فى اهتمام :

ـ وما هى ؟!

أشار الشاب بسبَّابته ، وهو يتحرك فى الحجرة ، فى نشاط وحماس ، على عكس المألوف ، مجيبًا :

ـ الساعة ، التى يقضيها بحارة الطاقم ، فى ميناء (برست) الفرنسى .

انعقد حاجبا (سنكلير) ، وهو يقول فى حذر :

ـ لقد درسنا هذه النقطة ، ووجدنا أن تلك الساعة لا تكفى للقيام بأى عمل كان ، بشكل جدى وحرفى .

توقَّف الشاب فجأة ، وهو يبتسم فى ثقة وغموض ، قائلاً :

ـ خطأ .. إنها تكفى وتزيد .

عادت الدهشة تملأ وجوه الجميع ، و(سنكلير) يتساءل فى اهتمام :

ـ تكفى لماذا ؟!

اتجه الشاب نحوه بحركة سريعة ، وهو يجيب فى حماس :

ـ لعملية استبدال .

هتف الجميع فى آن واحد :

ـ استبدال ؟!

كان هتافهم يحمل مزيجًا من الدهشة والاستنكار والحيرة ..

ولكن (سنكلير) لم يشاركهم هذا الهتاف ..

لقد انعقد حاجباه فى شدة ، وراحت سبّابته تداعب ذقنه فى روية وهدوء ، لا يعبران عن ذلك البحر المتلاطم فى أعماقه من الانفعالات ..

لقد أدرك الآن فقط ، أن الشاب يمتلك خيالاً خصبًا بالفعل ..

ففكرته ، على الرغم من صعوبتها كانت مدهشة ..

وبكل المقاييس ..

وفى اللحظة التى تصوّر فيها الرجال ، أن سير (إدوارد سنكلير) سيطرد (آيان فليمنج) من حجرة الاجتماعات ، فوجئوا به يعتدل على مقعده ، قائلاً فى حزم :

ـ أنت عبقرى يا فتى .

ثم التفت إلى أحد رجاله ، مستطردًا فى سرعة :

ـ أريد ملف طاقم بحارة (شتاين) .. الملف الكامل ، الذى يحوى صورهم ، وبياناتهم الكاملة .

وقبل أن تزول دهشة الرجال ، أو يستوعبوا الأمر ، كان (سنكلير) يعود ببصره إلى (آيان فليمنج) الشاب ، متابعًا فى حزم :

ـ وأنت ستشرف معى على العملية كلها .

شدّ الشاب قامته ، قائلاً :

ـ هذا يشرّفنى يا سيّدى .

سأله (سنكلير) فى اهتمام :

ـ هل تحتاج إلى أية معلومات أخرى .

أجابه الشاب ، فى سرعة وحزم :

ـ نعم يا سيّدى .. البيانات الكاملة لكل العاملين فى البحرية الملكية البريطانية .

هتف (سنكلير) فى سرعة :

ـ لك هذا .

وعادت عيون الرجال تتسع ، وقد تضاعفت دهشتهم ألف مرة ..

* * *

منذ بدايات عام ١٩٤١م ، لم يحصل البحار البريطانى (جورج وايلر) على إجازة واحدة ، ومدمرته تجوب المحيط الهندى ، متنقلة من مواجهة إلى أخرى ..

وأخيرًا منحوه إجازة فجاة ..

إجازة قصيرة ، لمدة أسبوع واحد ، تم إبلاغه بها وحده ، دون باقى رفاقه ، على نحو أثار غيظ وحسد معظمهم ، وبخاصة عندما ارتدى زى التشريفات الخاص ، وحمل حقيبته ، وبدا متألقًا ، وهو يغادر مدمرته ، على متن زورق خاص ، انطلق به إلى الشاطئ ..

وفى طريقه إلى هناك ، راح خيال (وايلر) يسبح بعيدًا ، مستعيدًا من ذاكرته وجه خطيبته (سوزان) ، التى طال شوقه إليها ، والتهبت مشاعره لفراقها ، وأدرك أنه لم تسنح له الفرصة لإبلاغها بقدومه ، وأن هذا سيجعله يفاجئها على نحو مدهش جميل ، و .....

« وصلنا يا فتى .. »

انتزعه قائد الزورق من ذكرياته وخيالاته ، وهو يوقف الزورق عند المرفأ ، قائلاً فى حزم :

ـ تذكّر أن تسلّم نفسك إلى مكتب قائد المرفأ أولاً ، قبل أن تبدأ إجازتك ..

لم يكن هذا الإجراء هو المتبع فى المعتاد ، إلا أن (وايلر) لم يناقش الأمر ، وإنما حمل حقيبته ، واتجه إلى مكتب قائد

المرفأ ، ودلف إليه وهو يؤدى التحية العسكرية ، وشفتاه تنفرجان لتقديم نفسه ، و ...

ولكن فجأة ، هوت على فكه لكمه ..

لكمة قوية ..

للغاية ..

* * *

٤ـ البديل ..

● اتسعت عينا البحَّار البريطانى (جورج وايلر) فى ذهول ، مع اللكمة القوية المفاجئة ، التى تلقاها فور دخوله مكتب قائد المرفأ ، وتراجع هاتفًا :

ـ ما هذا بالضبـ ....

قبل أن يتمّ عبارته ، هوت لكمة عنيفة أخرى على عينه اليسرى ، ثم أصابت لطمة عنيفة جانب عنقه ، فراح يسعل ، ويسعل ، وقد تولاًه مزيج من الدهشة والاستنكار والتوتر ، وجعله يهتف فى عصبية شديدة :

ـ ماذا يحدث ؟! ماذا فعلت ؟!

فاجأه صوت بسيط ، يقول فى شىء من المرح :

ـ الوطن يحتاج إليك يا (وايلر) .

حاول (وايلر) أن يفتح عينه المتورّمة ، ليلقى نظرة على صاحب الصوت ، وهو يقول بصوت خشن عصبى مبحوح :

ـ الوطن ؟! أى وطن ؟!

أتاه الجواب عندئذ ، بصوت قائد المرفأ ، الذى قال فى حزم :

ـ ألك وطن آخر يا (وايلر) ؟!

قال (وايلر) فى عصبية :

ـ وطنى لا ينهال علىَّ باللكمات على الأقل .

كان قد استعاد توازنه وبصره ، ولاحظ وجود شاب فى الحجرة ، يقف إلى جوار قائد المرفأ ، مرتديًا زى ضابط من ضباط البحرية الملكية ، بحلته السوداء ، ذات الأزرار الذهبية اللامعة ، وكابه الأبيض الناصع ، الذى يتوسَّطه تاج ذهبى أنيق ..

وإلى جواره هو ، كان يقف شاب آخر ، فى زى البحارة ، يبدو أشبه بأحد المصارعين الرومان القدامى ، بكتفيه العريضين ، وعضلاته القوية المفتولة ..

وكان من الواضح أن هذا الأخير هو الذى انهال عليه باللكمات ، مما جعله يبتعد عنه بحركة غريزية ، فى نفس اللحظة التى قال فيها الشاب ، الذى يقف إلى جوار القائد :

ـ معذرة يا (وايلر) ، ولكن اللكمات كانت ضرورية .

قال فى حدة عصبية :

ـ ولمـــاذا ؟!

أجابه الشاب فى هدوء حازم :

ـ سأشرح لك كل شىء ، فى طريقنا إلى (دوفر) .

تضاعفت عصبية (وايلر) ، وهو يتحسَّس عينه المتورِّمة ، قائلاً :

ـ (دوفر) ؟! ولكننى لست متجهًا إلى (دوفر) .. لقد بدأت إجازتى على التو ، وأنا فى طريقى إلى ..

قاطعه القائد فى صرامة :

ـ إجازتك ألغيت يا (وايلر) .

هتف (وايلر) فى غضب مستنكر :

ـ ألغيت ؟!

ابتسم الشاب ، وهو يقول :

ـ الواقع أنك لم تحصل فعليًا على أية إجازات يا (وايلر) ، ولكن هذا ما أردنا إقناع زملائك به .

سأله (وايلر) ، وقد بلغت عصبيته مبلغها :

ـ ولمـــاذا ؟!

شدّ الشاب قامته ، وهو يقول فى حزم :

ـ لقد سبق أن أخبرتك يا (وايلر) .. الوطن فى حاجة ماسة إليك .

أسلوب الشاب وعبارته ، مسّا شغاف قلب البحّار الشاب ، وتسلّلا إلى أعماقه ، على نحو جعله يعتدل ، فى وقفة عسكرية ثابتة ، وهو يقول بمنتهى القوة والحزم :

ـ وأنا رهن إشارة الوطن .

تنهّد الشاب ، واتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ عظيم .. دعنا ننطلق فورًا إلى (دوفر) إذن .

ثم مد يده ، ليصافح (وايلر) ، مستطردًا :

ـ وبالمناسبة ، اسمى (فليمنج) .. الملازم (آيان فليمنج) .

ولم يبد أن للاسم أهمية ، فى مثل هذا الموقف ..

أية أهمية ..

* * *

راجع سير (إدوارد سنكلير) التقرير الذى بين يديه ، للمرة الثالثة ، خلال ساعة واحدة ، قبل أن يضعه أمامه على سطح المكتب ، قائلاً :

ـ العملية تبدو أشبه بالروايات الخيالية ، حتى هذه اللحظة ، لدرجة أن سيادة رئيس الوزراء يتخوّف منها بشدة ، ويعتقد أنها غير قابلة للتنفيذ ، من الناحية العملية .

سأله مساعده فى حذر :

ـ وماذا عن رأيك أنت ، يا سيد (سنكلير) ؟!

تطلّع إليه (سنكلير) بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يجيب :

ـ إنها خطة جنونية بحق .

بدا القلق على وجه مساعده ، إلا أنه استدرك فى حزم :

ـ ولكننى أظن أنها مبتكرة ، إلى الحد الذى لن يخطر ببال أولئك النازيين أبدًا .

ونهض من مقعده ، مضيفًا :

ـ ثم إن التنفيذ قد بدأ بالفعل ، ولم يعد هناك مجال للتراجع .

اتسعت عينا مساعده ، وهو يهتف بدهشة :

ـ بدأ بالفعل ؟! ولماذا هذه العجلة ؟!

تنهَّد (سنكلير) ، قبل أن يقول فى ضيق :

- ليس لدينا خيار آخر ..

وصمت لحظة ، قبل أن يتابع :

- (شتاين) سترسو مرة واحدة فقط ، فى (برست) الفرنسية ثم ستخرج لمواصلة حصارها لنا لأسبوع آخر ، قبل أن تعود إلى (ألمانيا) ، وهذا يعنى أنه ليست أمامنا سوى فرصة واحدة لتنفيذ خطة (فليمنج) المدهشة تلك .

وصمت بضع لحظات أخرى ، ثم أضاف فى حزم :

- الليلة .

واتسعت عينا مساعده فى ارتياع ..

فالمهلة المتاحة كانت قصيرة بالفعل ..

قصيرة للغاية ..

* * *

« المشكلة أننى لا أجيد لعبة الجاسوسية هذه .. »

هتف البحَّار (وايلر) بالعبارة ، فى لهجة أقرب إلى الذعر ، وهو يجلس داخل السيارة ، التى تنطلق به مع (فليمنج) ، نحو ميناء (دوفر) ، فقال هذا الأخير فى حزم :

- أعلم هذا جيدًا يا (وايلر) ، فقد قضيت ليلتين كاملتين ، أراجع ملفك ، وملف بحَّار ألمانى ، يُدعى (فيلهام جروتر) ، حتى صرت أعرف كل شىء عنكما .

سأله (وايلر) ، فى حذر قلق :

- ومن (فيلهام جروتر) هذا ؟!

أخرج (فليمنج) من جيبه صورة ، وضعها أمام (وايلر) ، قائلاً :

- ها هو ذا .

حدَّق (وايلر) فى الصورة بدهشة بالغة ، قبل أن يهتف :

- رباه ! إنه يشبهنى إلى حد مدهش .

أومأ (فليمنج) برأسه ، قائلاً :

- هذا صحيح إلى حد ما ، ولكن هناك بعض الاختلافات ، فى اتساع العينين وحجم الشفاه ، واستدارة الوجه أيضًا .

قال (وايلر) فى عصبية :

ـ أى صديق له يمكن أن يكشف الفارق بيننا فى سهولة .

ابتسم (فليمنج) ، قائلاً :

ـ ليس إذا ما تورّمت عينيك وشفتيك ، وملأت الكدمات وجهك .

حدّق فيه (وايلر) بمنتهى الدهشة ، وهو يقول :

ـ آه .. كان هذا سبب اللكمات القوية .

أومأ (فليمنج) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ (جروتر) سيتلقّى مثلها ، فى (برست) الفرنسية ، فور هبوطه إليها .

عاد (وايلر) يحدّق فيه مرة أخرى فى دهشة ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ ما زالت هناك نقطة ضعف رهيبة فى الخطة .

سأله (فليمنج) فى اهتمام :

ـ وما هى ؟!

مال نحوه ، مجيبًا فى عصبية شديدة :

ـ لست أجيد الألمانية .

وكان هذا بالفعل خللاً رهيبًا فى الخطة ..

خلل رهيب للغاية .

* * *

٥ ـ كل الخطــــر ..

● نفث رئيس الوزراء البريطانى دخان سيجاره الضخم فى قوة ، وهو ينهض لاستقبال مدير المخابرات البريطـانى ، وبرفقتـه سير (إدوارد سنكلير) ، ثـم دعاهمـا للجلـوس ، وهو يقول للأخير فى شىء من الصرامة :

ـ كان من الضرورى أن ألتقى بك شخصيًا فى هذه المرحلة ، يا سير (سنكلير) .

قال (سنكلير) فى هدوء :

ـ إنه لشرف لى يا سيادة رئيس الوزراء .

نفث رئيس الوزراء دخان سيجاره مرة أخرى ، علـى نحو اشتمَ منه (سنكلير) رائحة التوتر ، قبل أن يقول الرجل :

ـ تلك الخطة ، التى تزمعون تنفيذها الليلة ، تحوى عـدة ثغرات مقلقـة يا سير (سنكلير) ، ولو شئنا الدقة ، لقلنـا إنها ثغرات مفزعة .

بدا التوتـر علـى وجـه مدير المخـابرات ، فـى حين ظلّ (سنكلير) محتفظًا بهدوئه ، وهو يقول :

ـ أية ثغرات هذه ، يا سيادة رئيس الوزراء ؟!

قلَّب رئيس الوزراء الأوراق التى أمامه ، وهو يقول فـى صرامة :

ـ لقد أسندت إليك هذه العملية يا (سنكلير) ؛ نظرًا لمـا يؤكِّده ملفـك ، مـن خبرتك ومهـارتك ، فـى معالجـة الأمور شديدة التعقيد ، ولكننى فوجئت بك تسندها إلـى شـاب مـن عائلة (فليمنج) ، اشتهر بعبثه واستهتاره ، إلى الحد الذى تسبَّب فى طرده مـن الكليـة العسكرية الملكيـة ، علـى نحو مخز مؤسف ، كما يقول ملفه .

ظلَّ (سنكلير) على هدوئه ، وهو يقول :

ـ وهذا ما تعتبره ثغرة يا سيادة رئيس الوزراء ؟!

قال رئيس الوزراء فى صرامة أكثر :

ـ وكيف تعتبره أنت ؟!

أجابه (سنكلير) فى سرعة وحزم :

ـ عبقرية .

اتسعت عينا مدير المخابرات ، فى دهشة مستنكرة ، فـى حين تراجع رئيس الوزراء بحركة حـادة ، وهـو يحدِّق فـى (سنكلير) ؛ الذى واصل هدوءه المدهش ، وهو يتابع :

- ربما كان (فليمنج) عابثًا مستهترًا ، عندما كان طالبًا فى الكلية العسكرية الملكية ، وربما لأن هذا المجال لا يناسبه فِعليًا ، إذ إنه لم يكد يلتحق بإدارة المخابرات ، حتى تفجَّرت داخله طاقة خلاَّقة ، جعلته يخطِّط وينفذ عددًا من أقوى عملياتنا ، التى أثارت جنون النازيين ، فى الآونة الأخيرة .

بدت الدهشة على وجه رئيس الوزراء ، وهو يقول :

- حقًا ؟!

التقط (سنكلير) ورقة من جيبه ، ووضعها أمام رئيس الوزراء ، قائلاً فى حزم :

- كنت أتوقَّع مثل هذا الاعتراض يا سيادة رئيس الوزراء ، لذا فقد أحضرت معى قائمة صغيرة ، بالعمليات المخابراتية الناجحة ، التى خطَّط لها ، ونفذها ذلك المستهتر العابث ، من عائلة (فليمنج) .

ارتفع حاجبا رئيس الوزراء فى دهشة ، وهو يطالع تلك القائمة الصغيرة ، التى حوت الأسماء الكودية لبعض العمليات ، التى تعتبر فخرًا لجهاز المخابرات البريطانى ، ثم لم يلبث أن قال :

- فليكن .. ربما خططً ونفَّذ كل هذه العمليات ، ولكنه ترك فى عملية الليلة ثغرة ضخمة مخيفة .

سأله (سنكلير) :

- أية ثغرة ، يا سيادة رئيس الوزراء ؟!

ضرب رئيس الوزراء الأوراق التى أمامه براحته ، وهو يجيب فى صرامة :

- الشاب الذى استعنتم به ، فى عملية الاستبدال تلك ، لا يجيد إلا أقل القليل من الألمانية .

ارتسمت ابتسامة هادئة ، على شفتى (سنكلير) ، وهو يقول :

- إنه يعلم هذا .

قال رئيس الوزراء بدهشة مستنكرة :

- يعلم هذا ؟!

استرخى (سنكلير) فى مقعده ، قائلاً فى هدوء شديد :

- بالتأكيد .

التقى حاجبا رئيس الوزراء البريطانى ، وهو يقول فى صرامة :

- لست أدرى كيف تتعامل مع ثغرة كهذه ، بكل هذا الهدوء واللامبالاة يا سير (سنكلير) ، فهذه الثغرة تبدو لى رهيبة للغاية ؛ إذ إنه ما إن ينطق بديلكم بجملة ألمانية واحدة ، حتى ينكشف أمره تمامًا ، وتفشل العملية كلها .

اتسعت ابتسامة (سنكلير) ، وحملت شيئًا من الغموض ، وهو يقول :

- وهذا يثبت عبقرية (فليمنج) ، يا سيادة رئيس الوزراء .

ولم يفهم الرجلان لحظتها ما الذى يقصده (سنكلير) بالضبط ، ولكن المؤكد أن ابتسامته قد حملت قدرًا كبيرًا من الغموض ..

كل الغموض ..

* * *

انكمش (جورج وايلر) ، فى أعماق ذلك الزورق ، الذى انطلق به عبر بحر (المانش) ، من الساحل البريطانى إلى الساحل الفرنسى ، وعقله يسترجع كل تفاصيل الخطة ، التى أصر (فليمنج) على أن يحفظها عن ظهر قلب ، قبل أن يغادر الأراضى البريطانية ..

كانت خطة بسيطة إلى حد مدهش ، ولكنها كافية تمامًا لبلوغ الهدف ، وتحقيق المطلوب ..

ولكن الخطر كان يكمن فى كل لحظة منها ..

كل لحظة بلا استثناء ..

وبالذات لأنه لم يتصوَّر نفسه قط فى مثل هذا الموقف المخيف ..

لم يتخيَّل يومًا أن يصبح جزءًا من منظومة العمل السرى ، بكل ما تحمله من مخاطر ومتاعب ومجازفات ..

ولكنهم اختاروه لهذا العمل ، ويؤكدون أنه الشخص المناسب تمامًا له ، وأن أحدًا لن يصلح له سواه ..

ثم إنهم قد استخدموا معه الكلمة السحرية ، التى لا يمكنه أن يتجاهل الاستجابة لها أبدًا ..

كلمة (الوطن) ..

الوطن فى حاجة إليه ..

سرى التوتر فى كل ذرة من كيانه ، وهو يسترجع الخطة مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

ثم قفز سؤال مخيف إلى عقله ..

ماذا لو انكشف أمره ، قبل حتى أن يصل إلى (برست) ؟!

الألمان يحتلون (فرنسا) ، ويسيطرون على كل موانيها وشواطئها ، فكيف يمكن أن يصل به الزورق فى أمان ، إلى الشاطئ الفرنسى ، عبر بحر (المانش) ، الذى يراقبه الألمان ليل نهار ؟!

كيف ؟!

وحتى لو بلغ الشاطئ الفرنسى ، فالرحلة ستصبح عندئذ أكثر خطورة ، عندما يقله رجال المقاومة الفرنسية ، عبر طرقات فرعية ، إلى (برست) ..

وكل هذا ينبغى أن يتمّ خلال ساعات ..

ساعات قليلة جدًا ..

ساعات ستبدو له أشبه بدهر كامل ، مع ما تحمله من مخاطر رهيبة ، ستجف خلالها الدماء فى عروقه ، قبل أن تبدأ العملية الفعلية ..

عربدت الفكرة فى أعماقه ، فانكمش فى قاع الزورق أكثر وأكثر ، وحاول أن يشغل نفسه عن التفكير فى الخطر ، بمراجعة تلك التصميمات ، التى راجعها معه (فليمنج) خمس مرات ، أثناء رحلتهما إلى (دوفر) ..

راجعها فى ذهنه مرة ، وثانية ، وثالثة ، و ....

« قف مكانك .. »

انطلقت الصيحة فجأة بالألمانية ، من خارج الزورق ، الذى غمره بغتة ضوء ساطع ..

وانتفض جسد (وايلر) بمنتهى العنف ..

فها هو ذا يواجه الخطر ..

كل الخطر ..

★ ★ ★

٦ ـ الثغرة ..

● بكل ذرة من الخوف في أعماقه ، انكمش (وايلر) فى قاع ذلك الزورق ، الذى يحمله من الساحل البريطانى إلى الساحل الفرنسى ، وبدا له أن الألمان قد كشفوا أمر الزورق ، قبل أن يبلغ الشاطئ الفرنسى ، وأنهم لن يلبثوا أن ينقضوا عليه ، وينتزعوه من مكانه ، و ...

وفجأة ، انفتح قاع الزورق ، الذى يختفى فيه ..

وغمر الضوء وجهه ..

وتجمَّدت أطرافه بشدة ، وهو يتوقَّع رصاصة مباشرة فى رأسه ، فى أية لحظة ..

« حمدًا لله على سلامتك .. »

اخترقت العبارة أذنيه بإنجليزية أنيقة ، ذات لكنة فرنسية ، فى نفس اللحظة التى ابتعد فيها الضوء عن وجهه ، ففتح عينيه فى توتر ، وحدَّق فى الملامح الفرنسية التى تواجهه ، قبل أن يقول فى ارتباك :

ـ من أنت ؟!

مدَّ الفرنسى يده ليصافحه ، وليعاونه على الخروج من قاع الزورق ، وهو يقول فى مودَّة واضحة :

ـ (جان كلود) ، من المقاومة الفرنسية .. نحن فى انتظارك ، منذ غروب الشمس .

تلفَّت (وايلر) حوله ، وهو يغادر الزورق ، متسائلاً فى توتّر :

ـ ولكن أين الألمان ؟! لقد سمعت أصواتهم ، و ...

قاطعه (جان كلود) ، وهو يندفع نحو كومة من الأشجار ، قائلاً :

ـ إنها محاولة للتمويه فحسب .. أنا الذى تحدَّث بالألمانية ، وقائد الزورق أجابنى بها ، وفقًا لعبارة التعارف المتفق عليها ..

هتف (وايلر) ، وهو يتبعه فى قلق :

ـ ولكننى تصوَّرت أن ....

قاطعه (جان كلود) مرة أخرى ، وهو يقول فى حزم :

ـ المهم أنك هنا الآن ، ولا بد أن نتحرك بأقصى سرعة ؛ حتى تبلغ (برست) فى الوقت المناسب .

ومع انطلاق السيارة بهما ، عبر طرقات فرعية هادئة ، بدأ (وايلر) يشعر أن الأمور تتطوَّر بسرعة مخيفة ..

وربما أسرع مما ينبغى ..

ففى صباح اليوم فحسب ، لم يكن يدرى شيئًا عما يفعله الآن ..

بل ، وكان من المستحيل حتى أن يتخيَّله ..

فى الصباح كان مجرَّد بحَّار عادى ، يتلهَّف للحصول على إجازته ؛ لرؤية خطيبته (سوزى) ، وقضاء وقت سعيد برفقتها ..

أما الآن ، فهو جاسوس ، يعمل لحساب المخابرات

البريطانية ، وينطلق فى قلب (فرنسا) المحتلة ، التى تسيطر عليها القوات النازية ، لتنفيذ مهمة انتحارية ، قد يكون ثمنها هو حياته نفسها ..

من يصدِّق هذا ؟!

من يمكن أن يصدِّقه ؟!

« كل شىء معدّ لاستقبالك فى (برست) .. »

نطق (جان كلود) العبارة فى حزم ، بلغته الإنجليزية ، ذات اللكنة الفرنسية الأنيقة ، فالتفت إليه (وايلر) ، متسائلاً فى توتر :

ـ ماذا تعنى بكل شىء ؟!

أجابه فى سرعة وحسم :

ـ الهوية الزائفة ، وثياب البحَّارة الألمان ، وكل ما يجعلهم يتصوَّرون أنك (فيلهام جروتر) .

سأله (وايلر) فى دهشة :

ـ ألن أستبدل ثيابى بثيابه ؟!

هزَّ (جام كلود) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ كلاً .. لن يكون هناك وقت لهذا .

انفرجت شفتا (وايلر) ، ليقول شيئًا ما ، إلا أن ذهنه لم يلبث أن استعاد تفاصيل الخطة ، التى لقنه إياها (فليمنج) ، فغمغم فى خفوت :

ـ بالتأكيد .

وطوال الطريق ، الذى قطعته السيارة ، عبر الأراضى الفرنسية ، إلى ميناء (برست) ، لم ينبس (وايلر) بكلمة أخرى ، وهو يراجع الخطة أكثر .. وأكثر .. وأكثر ..

وفى نفس اللحظة ، كان الألمانى (فيلهام جروتر) يغادر المدمرة (شتاين) فى (برست) ، وهو يهتف برفاقه فى مرح :

ـ أسبوع رائع يا رفاق .. حطمنا أنف البريطانيين ، وأغرقنا غواصاتهم كما لو كانت قطعًا من الأحجار الثقيلة .

قالها ، وأطلق ضحكة طويلة ، قبل أن يضيف :

ـ أمامنا ساعة واحدة ، لا بد وأن نحتفل خلالها بقدر الإمكان .

كان يسير بصحبته خمسة من رفاقه ، كما تقتضى تعليمات الأمن ، بحيث يراقب كل منهم خطوات الآخرين ، ويضمن عدم تعرُضهم للمتاعب ، خلال فترة الاستراحة القصيرة ..

ولأنهم جميعًا اعتادوا هذا الأسلوب ، فقد بدا لهم الأمر طبيعيًا آمنا ، وهم يقضون ليلتهم فى حانة فرنسية صغيرة ، ارتفعت فيها صيحاتهم المرحة ، وانطلقت دعاباتهم الثملة ، والوقت يمضى بسرعة ، حتى شارفت الساعة الانتهاء ، فرفع أحدهم يده ، هاتفًا فى شىء من الحزم ، وكأنما لم يشاركهم كئوسهم :

ـ حان وقت العودة يا رفاق .

نهضوا جميعًا ، وغادروا الحانة ، وهم يصنعون ضجيجًا كبيرًا كالمعتاد ، واتجهوا نحو الطريق الرئيسى ، الذى يقود إلى مدمرتهم ، التى تتزوَّد بالوقود والمؤن ، و ....

وفجأة ، ظهر أولئك الفرنسيين ..

كانوا يبدون ثملين بدورهم ، وهم يسيرون عبر الطريق ، وقد تأبَّط كل منهم ذراع رفيقه ، وارتفعت أصواتهم بأغنية فرنسية بذيئة ، تناسبت مع ترنُّحهم وخطواتهم المتعثرة ..

ولأنهم يسدون الطريق تمامًا ، فقد توقَّف الألمان عند ناصية منزل فرنسى بسيط ، وهتف أحدهم فى صرامة وصلف :

- ابتعدوا أيها الفرنسيين .. أفسحوا الطريق ، وإلا لقنّاكم درسًا لن تنسوه أبدًا .

توقَّف الفرنسيون ، وهتف أحدهم فى غضب مستنكر مستهجن :

- تلقوننا نحن درسًا ؟!

وقبل حتى أن يتمّ هتافه هذا ، كان الآخرون قد انقضوا بغتة ..

وبكل قوتهم ..

ومع تلك الانقضاضة المباغتة ، فوجئ (جروتر) بلكمة عنيفة فى عينه اليسرى ، وأخرى فى فكه ، وبلطمة على جانب عنقه ، قبل أن يمسك به أحدهم ، ويدفعه خارج الطريق ، إلى ذلك المنزل الصغير ..

وبينما اشتبك رفاقه فى قتال شوارع ، مع مجموعة الفرنسيين ، سقط (جروتر) بين عدة أياد قوية ، كممت إحداها فمه ، وهوت أخرى على مؤخرة عنقه ، فى حين راحت الأيادى الأخرى تحيط جسده بحبل سميك قوى ، وهى تجذبه إلى قبو المنزل ، فى غلظة وخشونة ..

وقبل أن يُغلق خلفه باب القبو ، لمح (جروتر) الذاهل شخصًا يشبهه إلى حد كبير ، ويرتدى زيًّا مشابهًا لزيه تمامًا ، يندفع خارج المنزل ، ثم يلقى نفسه أرضًا ، وسط المعركة ، وهو يلهث فى شدة ، قبل أن يميل برأسه ، ويلعب دور البحّار الثمل ، الفاقد الوعى .

ومع استقرار (وايلر) أرضًا ، واختفاء (جروتر) داخل قبو المنزل الفرنسى الصغير ، انفضّ الفرنسيون فجأة ،

واختفوا داخل الشوارع الجانبية للمدينة الصغيرة ، فهتف أحد الألمان خلفهم :

ـ أيها الجبناء .

كانوا جميعًا قد أصيبوا ببعض الكدمات والسحجات ، وهو أمر معتاد بالنسبة للبحارة ، فى كل إجازة تقريبًا ، ولكن زميلهم (جروتر) كان فاقد الوعى بينهم ، وقد تورَّمت عينه وشفته ، على نحو غيَّر ملامحه إلى حد ما ، كما بدا لهم جميعًا ..

وكرد فعل طبيعى ، تعارف البحارة الألمان على حمل من تصوَّروه زميلهم ، وأكملوا طريقهم إلى مدمرتهم ، التى بلغوها قبل انتهاء الزمن المحدود بدقيقة واحدة ، ليستقبلهم ضابط (الجستابو) المسئول ، قائلاً فى صرامة :

ـ مشاجرة سخيفة أخرى .

سمع (وايلر) العبارة ، ولم ينبس ببنت شفة ، خاصة

وأنه لم يفهم ما تعنيه بالضبط ، وإن تمنى لو استطاع إيقاف نبضات قلبه المتسارعة ، وأحد البحارة الألمان يؤكِّد أنهم لم يكونوا البادئين ، قبل أن يفسح لهم ضابط (الجستابو) الطريق ، قائلاً فى صرامة :

ـ فى المرة القادمة ، سأوقع عليكم جزاءً عنيفًا .

ولم يعلِّق أحدهم بحرف واحد ، وهم يحملون (وايلر) إلى سطح المدمرة ..

مدمرة النازيين ..

أعداؤه .

* * *

٧ ـ وسط الذئاب ..

● راجع سير (إدوارد سنكلير) ، رجل المخابرات البريطانى المحنك ، ذلك التقرير ، الذى قدَّمه له (آيان فليمنج) ، ثم هزَّ رأسه فى ارتياح ، قائلاً :

ـ هل وصل هذا الآن ؟!

أومأ (فليمنج) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ منذ سبع دقائق بالضبط .. أرسله (جان كلود) من (برست) ، وهو يؤكِّد أن الخطةِ قد سارت على ما يرام ، و (وايلر) الآن على متن المدمرة (شتاين) ، باعتباره (فيلهام جروتر) ، الفاقد الوعى ، إثر تلك المشاجرة ، التى افتعلها رجال المقاومة الفرنسية .

ابتسم (سنكلير) فى أعماقه ، وهو يقول ، بهدوئه الرصين :

ـ لهذا لن يحتاج إلى معرفة الألمانية ، ففاقدى الوعى لا يتحدثون إلى من حولهم ، أو يستمعون إليهم .

ابتسم (فليمنج) ، فى زهو واضح ، وهو يقول :

ـ بالضبط .

كان (سنكلير) يشعر بالإعجاب فى أعماقه ، بذلك الشاب الجرىء الواثق ، الذى يندر أن تجد مثله فى عالم المخابرات ، إلا أنه ، وعلى الرغم من هذا ، بدا حازمًا صارمًا ، وهو يسأله :

ـ وماذا عن الخطوة التالية ؟!

أشار (فليمنج) بيده ، مجيبًا :

ـ على الرغم من قصر المدة ، نجحت فى أن يحفظ (وايلر) تصميمات المدمرة (شتاين) عن ظهر قلب ، وهو يعرف الآن أين يوجد جهاز النازيين بالضبط ، فى قاع المدمرة ، وقرب الفجر ، وبعد أن يكون (شتاين) قد أقلعت بالفعل ، سيكون عليه أن يتسلَّل إلى هناك ، وأن يستخدم ما يحمله ؛ لتدمير الجهاز ، وصنع ثقب كبير ، فى قاع المدمرة نفسها .

قال (سنكلير) فى حزم :

ـ فى مدمرة كهذه ، ليس من السهل أبدًا أن يتسلَّل بحَّار عادى ، إلى القاع ، الذى يحوى جهازًا بالغ الأهمية والخطورة كهذا !

وافقه (فليمنج) ، قائلاً :

ـ بالطبع .

ثم مال نحوه ، مستطردًا بابتسامة كبيرة :

ـ لهذا طلبت معاونة الفرنسيين .

وفى أعمق أعماقه ، اعترف (سنكلير) بأن هذا الشاب عبقرى .

عبقرى بحق ..

★ ★ ★

« معدلاته الحيوية كلها على ما يرام ، باستثناء أمر واحد ، لا يمكننى فهمه بالضبط .. »

نطق طبيب المدمرة (شتاين) العبارة ، فى حيرة واضحة ، بعد أن انتهى من فحص (وايلر) ، الذى يتظاهر بفقدان الوعى ، فانعقد حاجبا ضابط (الجستابو) ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ أى أمر هذا ؟!

هزَّ الطبيب الألمانى كتفيه ، قائلاً :

ـ ضربات القلب أعلى من معدَّلها الطبيعى ، فى مثل هذه الظروف ، فالمفترض ، مع فقدان الوعى ، أن تنخفض معدلات النبض ، على نحو ملحوظ .

خُيِّل للبريطانى أن قلبه سيتوقَّف ، من شدة خوفه ، مع تصوُّره أن الطبيب قد كشف أمره ، على الرغم من أنه لم يفهم ثمانين فى المائة من كلماته ، ولا من كلمات ضابط (الجستابو) ، الذى تساءل فى صرامة :

ـ وما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

تردَّد الطبيب بضع لحظات ، وهو يتطلَّع إلى (وايلر) ،

ثم التقط أنفه رائحة الخمر ، التى سكبها الفرنسى (جان كلود) على زى البحرية الألمانى ، فهزّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ ربما يحتاج هذا الفتى إلى فحص قلبه جيدًا ، بعد أن يستعيد وعيه .

رمق ضابط (الجستابو) (وايلر) بنظرة شك ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ ربما .

ثم غادر العيادة ، فى قاع المدمرة ، وهو يستطرد فى صرامة أكثر قوة :

ـ أريده أن يأتى إلى مكتبى ، فور استعادته وعيه ، أيًا كانت الساعة ، التى يحدث فيها هذا .. هل تفهم ؟!

غمغم الطبيب فى توتر :

ـ بالتأكيد .

ألقى ضابط (الجستابو) نظرة أخرى على (وايلر) ، قبل أن يندفع مغادرًا المكان ، وكأنما تنتظره حربًا خاصة طاحنة ..

ومع انصرافه ، بدا (وايلر) يشعر بشىء من الاستقرار ، وإن لم ينخفض معدّل نبضه ، الذى ظلّ متسارعًا ، مع بقاء الطبيب داخل الحجرة ..

ولدقيقة كاملة أو يزيد ، وقف الطبيب يتطلّع إلى (وايلر) ، فى شىء من الحيرة قبل أن يمسك معصمه ؛ ليقيس نبضه مرة أخرى ، ثم انحنى يفتح جفنيه ، ويتطلّع إلى عينيه مباشرة ، فى اهتمام بالغ ..

وعندئذ ، كاد قلب (وايلر) يتوقّف بحق ..

ولكن عقله تذكّر كل كلمة ، قالها له (فليمنج) ، فى الطريق إلى (دوفر) ..

« إذا ما فتح عينيك ، ليتأكّد من استجابة بؤبؤهما ، ثبت بصرك فى نقطة وهمية ، وتظاهر بأنك لا تراه ، وسيمضى كل شىء على ما يرام .. المهم أن تثق فيما أقول تمامًا .. »

وبكل إرادته ، وخشية من انكشاف أمره ، نفذ (وايلر) تلك التعليمات تمامًا وبمنتهى الدقة ..

ترك بصره ثابتًا ، وتخيَّل نقطة وهمية ، وتجاهل نظرة الطبيب تمامًا ، حتى أرخى هذا الأخير جفنيه مرة أخرى ، وهو يهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ عجبًا !

ثم غادر الحجرة ، وأطفأ الضوء خلفه ..

وغرق (وايلر) فى الظلام ..

وعلى الرغم من ثقته فى أن الطبيب قد انصرف ، ظلّ مغمض العينين ، جامد الجسد ، وإن بدأت معدّلات نبضه تنخفض .. وتنخفض .. وتنخفض ..

حتى حدث أمر عجيب ..

لقد استغرق فى النوم ..

نعم .. غرق فى نوم عميق ، وكأنما استرخى جسده كله دفعة واحدة ، مع الصمت والهدوء ، وانحسار الخوف الشديد ..

وأثناء نومه أكملت (شتاين) تزوّدها بالمؤن والوقود ، واستعدّت للإقلاع ، وانطلقت صفارتها القوية ..

واستيقظ هو ، مع صوت الصفارة ..

واعتدل بحركة تلقائية حادة ، وقد استعاد قلبه نبضاته القوية العنيفة ، وهو يتلفَّت حوله ، وقد انتابه فزع مبهم عجيب ..

ولكن الحجرة كانت هادئة مظلمة ، مما أعاد إليه هدوءه ، فألقى نظرة على ساعته ، مستعينًا ببصيص من الضوء ، يتسلَّل عبر النافذة ، ولاحظ أن المدمرة قد بدأت تتحرك بالفعل ، فغمغم فى توتر :

ـ يبدو أن لحظة الحسم تقترب ..

عاد ذهنه يستعيد تفاصيل الخطة مرة أخرى ، غير مصدّق أنه بالفعل على متن المدمرة الألمانية ، وقاب قوسين أو أدنى من تلك الحجرة ، التى تحوى الجهاز الجديد ، المطلوب تدميره ، عندما تحين اللحظة المناسبة ..

وتحسُّبًا لأية احتمالات مفاجئة ، عاد يرقد على فراش العيادة ويراجع كل ما ينبغى له أن يفعله ، وتحسَّس حزامه ، وسرواله ، وحذاءه ..

ومضت الدقائق بطيئة ..

بطيئة إلى حد مخيف ، حتى خُيِّل إليه أن المدمرة قد بلغت منتصف المحيط الأطلنطى ، و ......

وفجأة ، بدأ الفرنسيون مهمتهم ، ليؤدوا الدور المنوط بهم فى الخطة ..

واتسعت عينا (وايلر) فى انبهار ..

فما فعله الفرنسيون ، كان جديرًا بجذب كل الانتباه بالفعل ..

وإلى أقصى حد .

* * *

٨ - ألعاب نارية ..

● اتسعت عينا ضابط (الجستابو) عن آخرهما ، على متن المدمرة الألمانية (شتاين) ، وهو يحدِّق فى تلك الألعاب النارية ، التى أطلقها الفرنسيون ، فى ميناء (برست) الصغير ، لتضىء السماء كلها ، على نحو جذب انتباه كل بحَّارة المدمرة المندهشين ، وجعل ضابط (الجستابو) يهتف فى غضب :

- ما الذى يفعله هؤلاء المجانين ؟! ألعاب نارية فى زمن الحرب ؟! إنهم يستحقون الإعدام بحق .

غمغم أحد مساعديه فى توتر :

- أنت لا تعرف عقلية الفرنسيين .

التقى حاجبا ضابط (الجستابو) فى صرامة ، وهو يقول فى حدة :

- هم الذين يجهلون عقلية الألمان .

ثم صاح بكل قوته :

ـ استديروا .. سنعود إلى الميناء .

سأله مساعده فى توتر :

ـ ولكن لماذا ؟!

عقد ضابط (الجستابو) كفيه خلف ظهره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لنلقنهم درسًا قاسيًا ، ونعلِّمهم كيف يتعاملون معنا ، فى المرات القادمة .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (جورج وايلر) قد بدأ تحركه بالفعل ، وفقًا للخطة ، التى يحفظها عن ظهر قلب ..

استعاد المسدس ، الشبيه بسلاح (جروتر) ، والذى انتزعه الطبيب من حزامه ، ووضعه فوق منضدة قريبة ، قبل أن يفحصه ، ثم انتزع عدة أنابيب رفيعة ، من أماكن خفية فى سرواله ، وألصقها بأرضية العيادة ، بالقرب من

النافذة ، ثم انتزع فتيلين من حزامه ، أوصلهما بتلك الأنابيب الرفيعة ، قبل أن يشعل النار فى طرفهما ، ويندفع خارج العيادة ..

كانت كل ذرة فى جسده ترتجف ، من فرط التوتر والانفعال ، وهو يعد وعبر الممر الطويل ، الذى يقود إلى حجرة جهاز رصد الأعماق ، إلا أنه لم يتوقَّف لحظة واحدة ، وكأنما تحولَّ إلى آلة ميكانيكية ، ليس لها من هدف سوى تنفيذ مهمتها ..

وبأى ثمن كان .

كان هناك حارس يقف عند باب حجرة جهاز رصد الأعماق ، ولم يكد يلمحه ، حتى هتف به فى دهشة :

ـ (جروتر) ؟! ماذا تفعل هنا ؟!

قبل حتى أن يكمل الحارس سؤاله ، أطلق (وايلر) النار عليه مباشرة ، عبر كاتم الصوت ، الذى انتزعه من كعب حذائه ، وثبته فى فوهة المسدس ..

ومع سقوط الحارس ، الذى باغتته تلك المبادرة غير المتوقَّعة ، انقضّ (وايلر) على حجرة جهاز رصد الأعماق ، واقتحمها فى عنف ، على نحو هبّ معه ضابط الاتصالات من مكانه ، وهو يهتف فى اضطراب :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

ولم يفكّر (وايلر) ، وإنما ضغط زناد مسدسه ، فانطلقت منه رصاصة صامتة ، اخترقت معدة ضابط الاتصالات الألمانى ،

الذى أطلق شهقة ألم مدهشة مذعورة ، وحاول أن يلتقط مسدسه من غمده ، فعاجله (وايلر) برصاصة أخرى ، نسفت رأسه ليسقط على جهاز رصد الأعماق جثة هامدة ..

وفى انفعال متصاعد ـ اتجه (وايلر) نحو جهاز رصد الأعماق ، وخلع حذاءه ، و ....

وفجأة ، لمح ذلك الرجل ، فى ركن الحجرة ..

كان رجلاً مدنيًا نحيلاً ، شحب وجهه حتى كاد يحاكى وجوه الموتى ، وقد انكمش على نفسه على نحو عجيب ، وراح يرتجف كطير مبتل ، وهو يحدّق فيه بعينين بلغ اتساعهما ذروته ..

كان المهندس (جينشر) ، مخترع جهاز رصد الأعماق ، وقد شمله رعب غير محدود ، جدير بإثارة شفقة أى إنسان ..

ولكن (وايلر) لم يكن فى تلك اللحظة إنسانًا ..

كان مجرَّد آلة ..

آلة فقدت كل مشاعرها وآدميتها ، مع دقة الموقف وخطورته ..

لذا فقد أدار فوهة المسدس نحو (جينشر) ، وأطلق النار مرة .. وثانية .. ثالثة ..

ثم لم ينتظر حتى لرؤية المهندس وهو يسقط ، وإنما أسرع يلصق حذائيه بجانبى الجهاز ، كما علَّمه (فليمنج) ،

وَأوصلهما بفتيلين ، انتزعهمـا أيضًا من حزامـه ، وأشعل النار فى طرفيهما ..

وبسرعة ، غادر (وايلر) حجرة جهاز رصد الأعمـاق ، وأغلقها خلفـه فى إحكام ، ثم انطلق يعدو حافيًا ؛ ليصعد إلى سـطح المدمـرة ، الـذى اجتمـع عنـده كـل بحَّارة طاقمهـا ، لمشـاهدة تلك الألعاب الناريـة المدهشـة ، التـى أطلقهـا رجـال المقـاومة الفرنسـية مـن (برست) ، فـى غزارة عجيبة ..

وعندما بلغ الطاقم ، عاد قلبه يخفق بمنتهى العنف ، مع مرأى كل هذا العدد من البحَّارة الألمان ، وضبـاطهم ، ومع الأضواء الملونة ، التى تغمر السماء ، و ....

« (جروتر) ؟! ماذا تفعل هنا ؟! »

اخترقت الصيحـة أذنيـه ، بمنتهى الصرامـة والغضـب ، ولكنه لم يفهم منها سـوى اسم (جروتـر) ، فاستدار إلـى مصدرها بحركـة حـادة ، ورأى ضـابط (الجسـتابو) يحدِّق

فيه بدهشة صارمة ، وينقـل بصره بين يديـه وقدميـه ، فى توتر ملحوظ ..

وعندئذ فقط ، انتبـه (وايلر) إلـى أنـه مـا زال يحمـل المسدس ، المزوَّد بكاتم الصوت ، والـذى نفدت رصاصاتـه كلهـا عـن آخـرهـا ، وأنـه يقـف على السـطح ، حـافيًا ، و ....

وبكل توتر وغضـب الدنيا ، انـتزع ضـابط (الجستابو) مسدسه من غمده ..

وانتفض (وايلر) فى عنف ..

ثم انطلق يعدو ، نحو حاجز المدمرة ..

وبكل غضبـه ، صـرخ الألمـانى ، وهـو يصـوِّب إليـه مسدسه :

- أوقفوا هذا الرجل .. أوقفوا (جروتر) .

صرخ بها ، وهو يضغط زناد مسدسه ..

وسمع (وايلر) دوى الرصاصة من خلفه ، وشعر بها تخترق ذراعه اليمنى ، ولكنه لم يتوقَّف لحظة واحدة ، وهو يواصل عدوه نحو أقرب حاجز إليه ..

ثم انطلقت رصاصة ثانية ، وشعر هو بعمود من النار يخترق فخده اليسرى ، ورأى عددًا من البحارة الألمان يندفعون نحوه ، وبدا له أنها النهاية ثم دوى الانفجار فجأة ..

المتفجرات التى زرعها فى العيادة الطبية نسفت جدار المدمرة بالقرب من قاعها ، فارتجّت فى عنف ، وصرخ ضابط (الجستابو) ، وقد استوعب الموقف كله :

ـ لا .. جهاز الأعماق .. أنقذوا جهاز رصد الأعماق .

ولم يفهم (وايلر) هذه الصرخة أيضًا ، ولكنه استجمع كل ما تبقَّى من قواه ، ووثب عبر حاجز المدمرة ..

ومن خلفه ، انطلقت عدة رصاصات ..

ثم دوى الانفجار الآخر ..

انفجار بلغت قوته خمسة أضعاف الانفجار الأوّل على الأقل ، وهو ينسف جهاز رصد الأعماق الألمانى المتطوّر ، وينسف معه قاع المدمرة ، صانعًا فيه فجوة ضخمة ، تدفَّقت مياه المحيط عبرها فى قوة ..

وارتطم جسد (وايلر) بمياه المحيط ـ وغاص فيها لعدة أمتار ، مع حالة الهرج والمرج ، التى سادت المدمرة ، وهى تميل على نحو مخيف ..

وعلى الرغم من إصاباته ، راح (وايلر) يسبح بكل قوته مبتعدًا ، ويسبح ، ويسبح .. ويسبح ..

ومن خلفه ، راح البحّارة الألمان يقفزون من المدمرة ـ التى بدأت الغرق ، فى مشهد رهيب ، يؤكِّد أن الفجوة فى قاعها كانت أكبر مما ينبغى ..

ومع الانفجار ، انطلقت غوّاصة بريطانية نحو المكان ، وقد أمنت شر جهاز رصد الأعماق الرهيب ..

ونجا (وايلر) ، بعد أن التقطته الغوّاصة البريطانية ، والتى التقطت أيضًا عشرات من طاقم المدمرة الغارقة ، وحملتهم أسرى إلى (بريطانيا) ..

ومع نجاح العملية ، حصل (سنكلير) على وسام تقدير من الملكة ، وعلى ترقية استثنائية من رئيس الوزراء ، تقديرًا لعبقريته وبراعته ..

أما (آيان فليمنج) ، فلم يحصل سوى على شكر شفهى ، من سير (سنكلير) ، على الرغم من أن خطته العبقرية المدهشة قد رفعت الحصار عن سواحل (بريطانيا) ، ومنحتها الفرصة للحصول على تصميمات جهاز رصد الأعماق الألمانى ، فى عملية تالية ناجحة ، ووضعت لبنة فى طريق هزيمة (ألمانيا) النازية ، وانتصار الحلفاء ..

والعجيب أن (فليمنج) لم يبال بهذا ، إذ كان قد اختار لمستقبله ، بعد انتهاء الحرب ، خطًا جديدًا مختلفًا تمامًا ، وهو يبتكر شخصية رواية لضابط مخابرات بريطانى ، شخصية العميل رقم (007) .. (جيمس بوند) ..

الجاسوس الروائى ، الذى جاب العالم ، بأراضيه وبحاره ومحيطاته ..

كل محيطاته ..

* * *

(تمت بحمد الله)

روايات مصرية للجيب

رجل المستحيل - ملف الجواسيس

جاسوس المحيط


د. نبيل فاروق

صفحة

◄ العيد الكبير (عملية واقعية) ٥

مذكرات رجل مخابرات :

٨ - السقوط ٣١

◄ عملية إنقاذ (من قصص الصراع المصرى الإسرائيلى) ٣٣

حرب المعرفة :

المعلومات (الحلقة الثانية) ٤٩

موضوع العدد

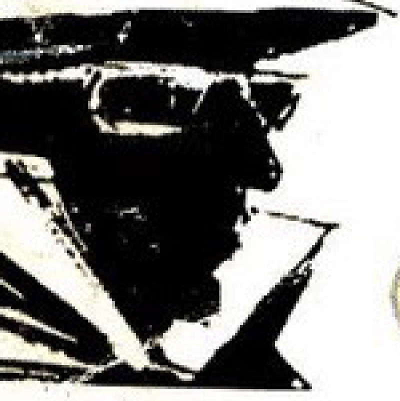
◄ (جاسوس المحيط) ٥٩

من قصص الجاسوسية العالمية

◄ سين ... و جيم ١٣٢

◄ ماذا تقترح ؟! ١٤١

صراع العقول الذى يتفوق دومًا على أعتى الأسلحة والمعدات



الثمن فى مصر ٣٠٠ مـ
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



